سعاد عادت من السماء

وقصص أخرى قصيرة

طبعة أولى 2021

- الكتاب: سعاد عادت من السماء (مجموعة قصصية)
- المؤلف:د/أحمد الباسوسي
- مراجعة لغوية:أ.عمار العربي
- تصميم الغلاف: أ.شيماء أبوطالب
- تنسيق داخلي: أ.حنين علي
- رقم الايداع: 28894
- دولي 9789776914292

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: 01005186476

صفحة الدار على موقع فيس بوك:

9789776914292

سعاد عادت من السماء
وقصص أخرى قصيرة

أحمد الباسوسي

الإهداء

إلى أولئك الذين يسعون في شوارع الكرة الأرضية: هل من منجاة من كل هذا الاضطراب والتشوش وعدم اليقين؟

إلى الذين يحلمون بإمكانية حياة أفضل: هل يمكن أن يحصل ذلك؟

إلى بلادي -وكانت درة تاج الحضارة-: متى تعودين؟

راحة أبدية

حتمًا وجب عليه أن يرتاح ولو لخمس دقائق فقط، فالدوران حول العالم أرهق قدميه وكبده ووهن قلبه؛ ما عاد قادرًا على ضخ الدم في أوصاله، الموت الآن يُعتبر راحة أبدية بعيدة المنال، ولكن الركض الاضطراري في شوارع القاهرة المزدحمة التي غُصَّت بالمتسكعين والغاضبين والمشردين والفقراء الذين أحرقتهم شمس أغسطس الملتهبة يبدو أيضًا حتميًّا وخارجًا عن نطاق السيطرة.

كان النهار في منتصفه، وكانت عيناه حمراوين غائرتين تحت جفنين تملكهما السواد المدقع، تمسحان الشوارع والناس وتتلهفان بشغفٍ للقاءِ شخص ما، ولايزال القلب الواهن داخل الصدر العليل يترنم باسمه.

كانت قدماه تركض في عجالة تطارد أوهامًا كثيرة تمكنت من رأسه في رقعة تتزايد اتساعًا في الجهات الأربع الأصلية لعله يهتدي إلى شخص ما أو شيء ما يعينه على إخماد تلك النيران التي تستعرُ بشدة داخل رأسه، وفي صدره، وداخل قلبه الواهن أيضًا.

بدا كمن يبحث في فضاء السماء السابعة عن مخرجٍ لأزمته المزمنة مع أيامه وكل من حوله، طرف بعينه في اتجاه السيارات التي تعوي في الشارع وترسل عادمها الفاسد إلى السماء في خضم الشارع المزدحم بالأغبرة الترابية ورائحة العرق والتبغ وأشباح من دون ملامح، تشقق حذاؤه الأسود البالي وتفككت أوصاله مثلما تفككت أوصال قلبه وكبده.

دارت السماء فوقه سبع دورات مجنونة، مرعبة، لكنها كانت حزينة، صمتت مع صمته، سقطت مع سقوطه حينما أراد أن يميلَ يمينًا في اتجاه معشوقته، تجمع الناس وتحلقوا حوله، قلبوه يمينًا ويسارًا، ما زالت عيناه تطالعان السماء في صفاء وراحة، ووجه مثل الحليب الرائق، وملامح ذهبية تخبر العالم أنه قد ارتاح الآن وليس بمقدور أحد أن يزعجه.

ما يزال

ما يزال الديك يصخب في عصبيةٍ وتوتر كلما أرسلت السماء ضوءها الناعس، وما تزال الكلاب تنبح بقوة ورهبة كلما أظلمت الأرض ولَمِعَت قُبّةُ السماءِ البعيدة، وما تزال الأشجار تثمر وتتفتح زهورها وألقها كلما جاء الربيع الجميل نديًا رائقًا من دون قتل، وما يزال الموت مُختبئًا خلف الجدار يتحين فرصة قنصي كلما مررتُ من هذا الشارع، وما يزال الرجل الذي يمرُّ كل يوم بجواري يحمل الصحيفة تحت إبطه غير مبالٍ بالسائرين في متاهات الشوارع والأزقة، وما زلتُ أنتظر قدري الذي يرقد خلف الجدار يترصدني، لعلي أجد النجاة هناك مع الأشجار المثمرة والكلاب القوية الغاضبة الهلعة، آملًا أن أهدئ من روعها، والديك العصبي أيضًا.

أفهم

قررتُ أن أفهم؛ أغلقتُ التلفاز وخرجت إلى الشارع.

كانت غلالة المساء تحط بهدوء، أضواء المقهى البلدي الباهتة انسكبت ببطء فوق الرؤوس المنشغلة بتحريك قواشيط الطاولة ومتابعة إحدى مباريات الدوري الإنجليزي أمام شاشة التلفاز الجديدة، أصوات مكبرات الصوت تزعق بقوة تنادي الناس لصلاة المغرب، وامرأة شابة ضرب البؤس بشرتها وثيابها، منكوشة الشعر، طفقت تصيح وتستغيث هلوعًا من ملاحقة رجل ضخم الجثة يشهر سكينًا كبيرًا ويتوعدها بصوت قوي.
وشاب أنيق جدًّا شارك في الثورتين قادم لتوه من لقائه مع خطيبته التي شاركت في الثورتين أيضًا وقد ركب الوجوم والإحباط تفاصيل خلايا جسده، سحب مَقعدًا وانضم إلى المتفرجين الذين يتابعون مباراة كرة القدم، رمقتني عيناه، أخبرتني أن حائطًا كبيرًا تم إقامته بعناية يحجب المقدرة على الدهشة والفهم.

الشارع يفتح شهيته للبائسين والبلطجية وأولئك الذين يسعون لفهم أحشائه، لكني جفلت بسرعة عن امرأة مسنة حاولت إيقافي لتعرض مشكلتها آملةً في المساعدة، وأخرى على الجانب الآخر كانت تراقبني وهمَّت بتوقيفي طمعًا في المساعدة أيضًا.

عجلت الخطى مجازفة ورغم ذلك انزلقت قدمي في حفرة من حفر الشارع وتجندلت على الأرض،

هرع ثلاثة من الشباب نحوي، ردوا إليّ استقامتي فوق الأرض مصحوبة ببعض الخبطات والاحتكاكات التي ظننتها بريئة كان الغرض منها تنظيف ملابسي من الغبار والروث الذي علق بها، عدتُ مسرعًا إلى المنزل لكي أخفي نفسي في الماء لأكتشف أنني عدت من دون هاتفي النقال، وحافظة نقودي المحشوة بأوراق هويتي الشخصية والخاوية من النقود.

الكمسري

الحافلة شبه خالية، فقط بضعة ركاب مبعثرين داخلها لا يلوون على شيء، الصخب والوجوم يضفيان على الميدان مسحة عبثية مجنونة، حيث تربض الحافلة انتظارًا لدورها في الانعتاق.

صعد رجل نحيل يرفل في بذلة قديمة رمادية اللون واسعة يسأل عن وجهة الحافلة، لم يهتم أحد بالإجابة على سؤاله ولا حتى بالنظر إلى هيئته الفوضوية كذلك الميدان، ملامحه المجعدة توحي أنه ستيني وأنه اعتاد ارتداء البدل والإصرار على ركوب موجة التأنق رغم انكماش الجسد والأطراف، ونضوب الصحة والمال.

أعاد سؤاله لأحدهم والذي كان يدفن رأسه خارج النافذة بجوار أحد المقاعد القريبة من مقعده:

- لو سمحت يا ابني الأوتوبيس دا رايح المنيب؟

عاد الشاب من شروده في تكاسل، احتوت عيناه اللامعة هيئة الرجل الفوضوية الحائرة، أجابه بلا مبالاة:

- ماعرفش، لما يجي الكمسري ابقى اسأله.

التفت الرجل حوله، لم يظهر أمامه سوى الغموض والحيرة وركاب عجائز رجال ونساء يحجلون حتى يتسلقون سلم الحافلة المرتفع عن الأرض للصعود إلى أحشائها التي بدت خربة وغامضة، سألوا جميعًا نفس سؤال الرجل، وتلقوا

جميعًا نفس الإجابة «معرفش»، ورغم ذلك استلقوا على مقاعدهم يلفهم القلق والحيرة ومحاولة اصطياد شخص ما يخبرهم بالإجابة.

لحظات قليلة مرت قبل أن يصعد رجلان، أحدهما بدينٌ هيئته تبدو مثل هيئة الميدان الصاخب المزدحم بالفوضى، توجه مباشرة نحو مقعد القيادة وقد كان متبرمًا، حانقًا، والآخر ضئيل الحجم يمسك أوراق التذاكر في يده، مضى في ذيل الأول يحاول احتواءه بكلمات غريبة، لكن السائق البدين ما يزال يسب ويلعن كل شيء وأي شيء.

جاء سؤال سيدة من الركاب جالسة في ظهر السائق مباغتًا إياه مثل طعنة في ظهره:

- الأوتوبيس دا رايح الجيزة يا اسطا؟

جاء جوابه سريعًا عاصفًا دون أن يلتفت ناحيتها:

- أيوا، رايح المخروبة، ملعون أبو الأوتوبيسات على اللي بيسوقوها على اللي بيركبوها.

احتجت السيدة وبعض الركاب، ارتفعت وتيرة التلاسن داخل الحافلة في أثناء تحركها مغادرة الميدان، حاول الكمسري احتواء الأمر والركاب الثائرين، وعندما فشل توجه نحو باب الحافلة المجاور للسائق، طفق مثل المعتاد ينادي بأعلى صوت «جيزة، منيب» لعله يلتقط آخرين من الشارع يزيد بهم غلته من محصول أجرة التذاكر المباعة للركاب، ثم أدار وجهه داخل الحافلة حتى أصبح في مواجهة صاحب الوجه المجعد والبذلة الواسعة، طالبه بالأجرة، نبشت أصابع الرجل داخل جيوبه ثم خرجت بحافظة نقود خاوية، رمق الكمسري المتحفز الرجل

بنظرة العالم ببواطن الأمور والمطّلِع على ألاعيب أولئك المتسكعين في الشوارع والراغبين في أن يعيشوا «سفلقة» على حساب الدولة، لكن الرجل لم يحرك ساكنًا، لم يكن يردد سوى جملة واحدة بمنتهى الوهن والاستكانة والتوسل: «مش معايا يا ابني، والله لو معايا كنت أعطيتك»، اتسعت نظرة الكمسري تجاه العجوز المتأنق المنكسر لتصير شرارًا لا يمكن احتماله.

الحافلة تخترق الشوارع في صخب لافت، والركاب الذين تكاثر عددهم داخلها انشغلوا بالتسابق على المقاعد القليلة الفارغة أو الحملقة في الشوارع من خلال زجاج النوافذ للهبوط إلى أعمالهم ومصالحهم، لكن لم يهتم أحدٌ بمتابعة الأمر الذي يجرى بين الكمسري والرجل صاحب البذلة الواسعة والمحفظة الخاوية.

انطلقت عقيرة الكمسري غاضبة ضد الرجل الذي أبلغه توًّا أنه لا يملك ثمن التذكرة، انتفخت أوداجه، اكفهر وجهه، خرجت عبارات حادة سريعة منفلتة هتكت ستر العجوز الذي غرق في بذلته القديمة، فتتت هيئته وتناثرت أشلاؤها بينما انشغل معظم الركاب بعدم الاكتراث سوى راكبين اثنين تابعا النقاش وانصرفا لحال سبيلهما، خرج العجوز من دهشته أخيرًا حينما طالب الكمسري السائق أن يتوقف لطرد الرجل من الحافلة لأنه لا يريد أن يدفع ثمن التذكرة، تمكن من البكاء ومن الحديث أيضًا، خرجت كلماته واهنة، مترددة: «دا أتوبيس الشعب وحقي أركبه حتى لو مش معايا فلوس»، طفق يردد هذه العبارة وهو يسير في اتجاه باب الخروج بعد أن أوقف السائق الحافلة لطرده.

لم يعد بمقدور العجوز أن يلتفت إلى عيون مشفقة أو مترصدة قاسية أو حتى إلى تلك المرأة السمراء البدينة التي عنفت الكمسري بقوة، وطالبته بتذكرة على حسابها للرجل الذي كان قد اقترب من الباب ولم يعد يلتفت إلى النداءات التي انطلقت من خلفه مطالبة بالبقاء في الحافلة، لأن ثمن التذكرة قد سددته المرأة التي كانت تجلس في المقعد الأخير.

السائق

نهار صعب ينز صهدًا وسخونة، وشوارع مكتظة بالسيارات والفوضى، وسائقون نضحت عيونهم بالغضب وانفلتت عقائرهم بكل أنواع الردح والسَّب.

بصعوبة تمكنت من الوصول إلى مكان الحافلة، غبار وعوادم سيارات كثيفة، وأصوات متداخلة مزعجة، وسيارات كثيرة تطبق على الحافلة من مختلف الاتجاهات يتربص سائقوها الغاضبون فرصة قنص مساحة بضعة سنتيمترات فارغة للانفلات وعبور تلك المنطقة المخنوقة.

صعدتُ إلى الحافلة المتعثرة في الميدان غارقًا ما بين عرقي وإحباطي الذي لازمني منذ أول ذلك النهار، استلقيتُ على مقعدٍ خلف السائق مباشرة بعد أن استفسرت منه عن وجهته، أومأ برأسه موافقًا وقد كان منشغلًا بحوار غاضب خشن مع سائق حافلة أخرى يجاوره بخصوص أولوية المرور، أدركت حينها أنني سوف أمضي نهاري حبيس تلك البقعة المدهشة من الأرض.

سيارات ملاكي وحافلات نقل جماعي بمختلف أنواعها، دراجات نارية صينية الصنع يجلس فوقها رجال ونساء وصبية وأطفال، ودراجات هوائية قديمة، وعربة يجرها حمار مرهق يمسك لجامه شخص نحيل يتدثر في جلباب قديم مهترئ من الأجناب، يكاد رأسه أن يختفي مع أغبرة عوادم السيارات، وكلاب وقطط ضالة تسعى على غير هدى تبحث عن ثغرة للمروق للفضاء الواسع البعيد، وعشرات من المارة المترجلين ما بين رجال ونساء بمختلف الأشكال والألوان تشي عيونهم التي تدور في مختلف الاتجاهات بالحيرة والتعب، كل هؤلاء يتصارعون في بقعة الميدان التي ضاقت بهم حتى ارتفع صوت أنينها طالبا نجدة السماء.

التفت السائق إلى الخلف نحوي، غرق وجهه الضئيل في ابتسامة أثارت انتباهي الذي أجهده عمق التحديق في لوحة الميدان العبثية، أخبرني أنني سوف أضطر إلى المشي مسافة محطة أوتوبيس للوصول إلى مبتغاي، أومأتُ بالموافقة الاضطرارية والتعجب من تلك الابتسامة التي انبجست فجأة في ظل هذا الظرف المشحون بالتوتر وانفلات الأعصاب، وذلك الصوت الحاني الملفت الذي خرج توًا من رحم الصوت الجهوري الغاضب الذي سمعته آتيًا من الخلف منذ لحظات ينفث هلعه واحتجاجه على سائق السيارة الملاصقة الذي كاد أن يطيح بمرآة الجانب الأيمن لحافلته، الآن تحول كل شيء، خرجت ابتسامة مريحة رائعة في فضاء الحافلة وشى عنها وجهه الخمري المخروطي الضئيل، وعيناه الضيقتان اللتان ميزهما اللون اللبني الصارخ، وصوته الحاني الذي خلا فجأة من توتر الميدان الصاخب.

حركة الحافلة العرجاء وكذلك امتلاء الشوارع بالبشر زاد من إيقاع توتر الركاب داخلها وكان أغلبهم من السيدات العاملات، وكن في منتصف العمر كما تشي بذلك ملامح وجوههن المرهقة الخالية من مساحيق التجميل تقريبًا، وأيضًا أسمالهن البسيطة، بعضهن كُن يحملن حقائب يد من المقاس الكبير والتي تبدو متخمة وثقيلة.

شغلتني قليلًا تلك الحركة المتوترة لصعود الركاب داخل الحافلة واحتلال المقاعد الفارغة، والأسئلة اللا نهائية المكررة للسائق الشاب عن وجهة الحافلة ومسارها، وإجاباته التي تفاعلت مع وجوه النسوة حيث تباينت مع مستويات نضارة الوجوه، وجمال الأصوات ونعومتها، ورشاقة البدن وامتلائه، وكان يحاول في جميع الأحوال أن يكون ودودًا مع الجميع حتى لو تأزم الأمر في طريقه المزدحم.

صعد صبي ضئيل الجسد من رحم الشارع المزدحم تظهر على ملامحه آثار وسامة وذو عينان زرقاوان، يرتدي بنطالًا زهريًا متسخًا وتيشيرتًا باهتًا مطبوعًا عليه

جميع ألوان الشارع الفوضوي القاسي، يبدو أنه كان ذا لون أبيض، كان يحمل كيسًا متوسط الحجم ممتلئ بالمناديل الورقية التي يبيعها ويتسول بها.

طفق يعلن عن بضاعته في الحافلة ولما لم يستجب أحدًا لندداءاته استلقى على الأرضية خلف السائق يحملق في الركاب تارة ويفكر في خطوته القادمة تارة أخرى.

سأله السائق عن قيمة التذكرة فأخبره أنه يبيع المناديل، التفت إليه، طلب منه معاينة بضاعته، أشار إليه الصبي بعلبة مناديل الجيب، يتضح على الطفل أنه طرق أبواب المراهقة منذ عام أو عامين، نبشت أصابع السائق داخل تابلوه الحافلة، ظهرت ورقة بقيمة خمسين جنيهًا، دسها في كف الصبي الصغيرة، انتشلني هذا الأمر من شرودي مع نافذة الحافلة وما يدور خلفها من اشتباكات بين البشر والحديد الذي يتحرك، وصراع الفقراء، وبطء الحركة، والملامح والوجوه، والقرارات.

رجعت مضطرًا إلى ذلك الشاب سائق الحافلة الذي يعطي للصبي معظم ما تحصل عليه من قيمة التذاكر التي حصل عليها من الركاب في هذا اليوم الذي بدا صعبًا في كل شيء، في الحركة، والحر، والعراك وانفلات الأعصاب، وربما ينهي ورديته محبوسًا في الطريق بالغ الازدحام من دون مدخولات مالية إضافية.

قررت متابعته وإصغاء السمع لكل ما يدور بين السائق والصبي، الطريق لا يزال طويلًا، زحام الشوارع في الخارج يخنق كل شيء، سائق الحافلة يبادل الصبي حديثًا وديًّا، يخبره أنه وسيم، فيبتسم الصبي وتظهر عليه أمارات الخجل

، يسأله عمَّا إذا كان يعيش وحده أم يسكن مع آخرين، أجابه الصبي:

- أعيش مع آخرين.

عند هذا الأمر تشككت في نية السائق الشاب صاحب العيون اللبنية مع الصبي، ولماذا نقده ورقة الخمسين جنيهًا من دون مقابل؟

قررت إصغاء السمع والاهتمام أكثر بما سوف يفعله السائق مع الصبي، هل يطلب رقم هاتفه؟ هل يتعرف على عنوانه ويذهب إليه لاحقًا من أجل قضاء لحظات جنسية معه؟ لكن الذي حدث أن الصبي ظلَّ صامتًا، وسائق الحافلة ظل منشغلًا بالطريق وحديث ودي مع راكب صعد فجأة بالمقعد المجاور له، اتضح أنهم معرفة طريق قديمة، ذكَّره الراكب بنفسه وأنه ركب معه كثيرًا حينما كان يذهب لعمله في نوبة الصباح الباكر منذ شهرين.

طفق السائق يثرثر حتى صعد شاب ثلاثيني يحمل كيسًا كبيرًا، أخرج مناديل من الورق أيضًا، لكن هذه المرة عبارة عن رزم، كل رزمة تحتوي على اثنتي عشرة علبة، ظل يعلن عن بضاعته وسعرها المتدني مقارنة بالمحلات ولما لم يستجب أحد استلقى بجوار الصبي، التفت إليه السائق يناشده بتخفيض السعر، أقسم له الشاب أن هذا آخر شيء وبعدها الخسارة، طلب منه كيسين من علب المناديل ثم كيسين آخرين، وبائع المناديل يناوله، والسائق يكوم البضاعة أمامه فوق تابلوه الحافلة، ثم طلب منه أن يتم العشرين رزمة، أخرجهما البائع الشاب من كيسه وظل يناوله والسائق يكوم أمامه فوق التابلوه حتى ازدحم المكان بالأكياس، فرغ البائع واستلم منه ورقة فئة المائة جنيه قيمة الصفقة.

حملقت في المشهد غير مصدق، تحولت الحافلة وكأنها متجر لبيع المناديل الورقية، فكرت، نهشت الأسئلة رأسي، ربما كان السائق مهووسًا بتجميع المناديل

الورقية من باعة الشارع! أو ربما يكون مهووسًا بصرف نقوده على الأشياء غير الضرورية على شاكلة بعضهم ممن ابتلوا بنوع من الاضطرابات النفسية؛ حيث يصبح صرف النقود على الأشياء غير الضرورية أو التافهة أو حتى منحها لآخرين تندرج تحت أعراض هذا الاضطراب، يا له من رجل غريب الأطوار! السيارة ما تزال تتعثر في الطريق، ومنظر أكياس مناديل الورق المكومة أمامه يثير دهشة وعجب الركاب المنضمين حديثًا للحافلة.

غادر بائع المناديل بعد صفقته الناجحة، وصبي الشارع يراقب الموقف باهتمام، أخبره أن البائع خدعه وأنه يشتري الرزمة بقيمة أقل من التي أبلغه بها، أخبره بسرعة ومن دون مبالاة أن هذا الصنف أفضل من الصنف الذي يبيعه، ثم انصرف إلى انشغاله بالثرثرة مع الراكب معرفته السابقة الذي يجاوره.

الطريق تتعقد مساراته مع دوران عقرب الساعة والمنحنيات التي تتوقف عندها حركة السيارات وحركة الحياة، هنا تصبح الفوضى والغوغائية سمة سائدة تفجر الشوارع والميدان الذي يتوسطها ومنحنياته، وتصيب القلوب والعقول بالشلل والجمود.

قبل أن أعود إلى شرودي واستسلامي لقدري في الاحتباس داخل الحافلة لاحظت توقفها تمامًا عند طرف الشارع الأيمن واختفاء السائق أيضًا، دارت عيناي في مختلف الاتجاهات بحثًا عنه حتى صادته أخيرًا ملتصق بأحد الجدران القديمة مُولي ظهره للحافلة والركاب ولجميع المارة في الطريق العام فاتحًا ساقيه قليلًا في وضعيه إفراغ مثانته، طفق يتبول على الحائط باسترخاء شديد، لم يدهشني المنظر بقدر ما أدهشني استلقائه بأريحية على مقعد القيادة وامتناعه عن تحريك السيارة، أخبر الراكب الذي يجلس على المقعد بجواره المعرفة السابقة أنه بينما كان يتبول تلقى تعليمات بالعودة بالركاب إلى موقف الحافلات حيث بداية

الرحلة، صُعِق الشاب وحاول الاستفسار عن كيفية تلقيه هذه التعليمات؟ ومن المسئول؟ والهدف منها؟

انشغل السائق من دون اهتمام بتحريك الحافلة والدوران بها إلى الخلف، أغلق بابيها الأمامي والخلفي لمنع نزول أو صعود الركاب، حلَّ الصخب داخل الحافلة، غضب الكثيرون، ومع ذلك ظلت الحافلة العرجاء تسير في شوارع القاهرة مرتدة إلى الميدان الذي لم نكن قد ابتعدنا عنه كثيرا.

عدت إلى شرودي وانشغالي بحركة الناس والأشياء من خلال النافذة بعد أن تيقنت أن السائق قد استعاد حيويته ونشاطه وقدرته الفائقة على الثرثرة مع جاره الراكب المعرفة السابقة المحتقن بالغضب والغيظ الشديدان.

عيون الظباء

تمامًا في الساعة الثالثة بعد الظهر ظهرت امرأة مترهلة تبدو في منتصف العمر، ترتدي زيًّا أزرق باهتًا خاصًّا بعمال النظافة في المصحة وقد قبضت على قفل الباب المغلق بسلسلة حديد صدئة وأعملت فيه المفتاح، فُتِحَ الباب على مصراعيه؛ تسارع العشرات من الزوار إلى الداخل للقاء ذويهم المرضى، كان معظمهم من النساء والأطفال، انتشروا في ساحة متوسطة المساحة تُستخدم في الأيام العادية كممر للذين يدلفون إلى داخل المصحة، أو مكان انتظار للمرضى وذويهم إلى حين استدعائهم بعقيرة قوية بواسطة عامل الأمن إلى الداخل للمناظرة بواسطة الأطباء.

دارت عيناه تبحثان كما اعتاد أن يفعل مع كل زيارة له منذ أن اضطر أن يأتي إلى هذا المكان قبل بضعة أسابيع، ولما خاب أمله في التقاط صورة وجهها المليح استدار نحو عاملة النظافة التي مكثت واقفة بين الزوار تجيب على أسئلتهم عن أحوال أبنائهم وظروف معيشتهم، كانت المرأة تتعمد أن تطمئن الأهالي، وتحقق لهم الصورة أو الأمنية التي يتمنونها بخصوص صلاح أحوال الأبناء وتغيير سلوكياتهم للأفضل، وتحليهم بالهدوء والامتثال للعلاج، أيضًا كانت تحدثهم عن مدى إعجاب الأطباء بهم، وهذا كله كان واقعًا مزيفا قصدت منه خلق حالة من الطمأنينة والرضى لدى أولئك الأهالي البائسين الذين يتوقون لكلمة واحدة تطمئنهم على أبنائهم ولا يجدونها إلا عند تلك المرأة دائمة الحضور والابتسام والهدوء، دائمًا ما تتشح بملامح الطيبة والنبل والروعة، وهذا الأمر كان سببًا في أن يفتح عليها أبواب من الرزق معقولة من جانب الأهالي لم تكن في الحسبان على الرغم من أن هذا لم يكن ضمن عملها الأساسي بالمصحة منذ أن التحقت بالعمل

بها قبل عام، فهي مسئولة عن تنظيف أجنحة السيدات، واستلام زيارات أقارب المرضى وإيصالها إلى مسئولي الأجنحة المعنية لتفتيشها قبل تسليمها لأصحابها، وكذلك استلام النقود من الأهالي وإيصالها إلى مكتب الأمانات، كل هذه الأعمال والاحتكاكات مع المرضى وذويهم جعلتها تقترب كثيرًا من الجميع، حتى الأطباء والممرضين لم يملكوا سوى الثقة فيها والاعتماد عليها في الكثير من الأعمال الإضافية الطارئة، ونتيجة لذلك كان يتجمع لديها عقب كل زيارة على وجه الخصوص كمية إضافية من المال تحصل عليه سواء من المرضى أو ذويهم؛ فتذهب به آخر اليوم إلى أبنائها الخمسة الذين تركهم أبوهم ذات مساء واختفى منذ عامين عقب مشاجرة حامية الوطيس معها.

بمجرد أن لمحت عينيه الحائرتين تستدعيها تسللت بهدوء من وسط مجموعة الأهالي واقتربت حيث موضع جلوسه فوق المقعد الحجري في انتظار أخيه الأصغر، احتوته بابتسامة كبيرة مريحة نضح منها فيض هائل من ذلك الحنان الذي كان يتعمد تجاهله دائمًا لأنه يربط بين هذا الاقتراب الشديد منها تجاهه وبين تلك النقود التي اعتاد أن يدسها في كف يدها الأبيض الغليظ في كل مرة يأتي لزيارة أخيه الأصغر الذي ساقه قدره على إدمان الهيروين المخدر منذ عدة سنوات، كما أنه لم يكن مهتمًا بالانجذاب تجاهها على الرغم من ثقته بسهولة إقامة علاقة معها في أي وقت، اكتفى فقط بالحصول على خدماتها، وكذلك الحصول منها على معلومات حقيقية تكشف عن مسار أخيه في العلاج والذي اعتبره حتى الآن محبطًا وسيئًا ودون جدوى بكل المقاييس وفقًا للمعلومات التي كانت تمررها له بخصوص سلوكياته داخل عنبر العلاج.

ومثل المعتاد استقبلها بابتسامة أوسع من بسمتها، استمدت تألقها وجاذبيتها من خلال نكاته المتميزة، وبساطته في التعامل معها، الأمر الذي شجعها على تشغيل ماكينة أخبارها عن شقيقة وآخر المصائب التي تورط فيها بسبب إصراره على

الخروج وقطع مسيرة العلاج، لم يكن هذا الأمر يعنيه كثيرا، فقد ملَّ من تكرار سماع مثل هذه الحكايات السخيفة، والحقيقة أنه كان شغوفا بشيء آخر اضطره إلى إيقاف ماكينة الحكايات المملة عن أخيه مغتمًا، أوقف استرسالها بسؤال مباغت عن مريض آخر اعتاد أن يكون معهم في مثل هذا الوقت بصحبة أخته الفارعة، توقفت عن الاسترسال والأريحية، امتقع لون وجهها وبهت، تغير من لون الحليب إلى الاصفرار، لاحظ ذلك فأدرك أنه باغتها بطعنة غادرة، حاول استدراك الأمر على طريقته الملتوية حيث قال:

- أصل الولد أخوها كان شبه أخي في التصرفات.

جلست بجواره على المقعد الحجري، ترددت في البداية ثم أخبرته أنها سوف تستأمنه على أحد أسرار المصحة والذي يجب أن يظل داخلها لذا لا يجوز له إفشاء هذا السر، تملكه الذهول والاهتمام، تفحص عينيها يبحث فيهما عن الجدية، اكتشف لأول مرة إنها تتلألأ من شدة اللمعان، كانت عيناها شديدة البياض والاتساع، وهناك سواد رائع يغطيها أشبه بالكحل مثل عيون الظِباَء، لأول مرة يلحظ أيضًا أن قلبه ارتجف بشدة، تمادى في التحديق، لم تتحمل عنف نظراته فأطرقت برأسها في الأرض ثم استرسلت من غير مبالاة:

- البنت طلعت مش أخته، دي واحدة صاحبته ضاربة بطاقة على إنها أخته وكانت تجيب له الهروين مع الزيارة، قرايبه جُم وسط الأسبوع كشفوا الموضوع وخرجوه.

لم يمهله تواتر نزول المرضى وصخبهم عند لقاء ذويهم أن يتم دهشته، كما إنها انتفضت بسرعة من جواره عندما لمحت وجه أخيه الأصغر ظهر من بعيد يحملق في الجالسين الذين كتب عليهم البؤس والشقاء، وككل زيارة ارتفعت صيحات الغضب والاحتجاج والاتهامات ضد الأهالي طلبًا للخروج.

انزوى بأخيه الغاضب يتأمل ملامحه غير المريحة واتهاماته له أنه يتعمد سجنه في هذا المكان من أجل أن يستولي وحده على ثروة أبيهم، ربما لم يعد بمقدوره أن يهتم بأي شيء يتعلق بالمصحة بعد الذي سمعه من المرأة بقدر اهتمامه باكتشافه الجديد، وقلبه الذي ما يزال يرتجف مُذ أصابته تلك العيون المدهشة.

رأى نفسه وقد انتظرها في سيارته حتى نهاية نوبة عملها، تعمقت دهشته أكثر حينما جاءت إليه متهادية مثل بطة سمينة لكن قوية وجميلة من دون زي المصحة، كانت ترتدي فستانًا ورديًا بسيطًا، وغطت رأسها بغطاء أحمر جذاب أضاف لقامتها القصيرة هالة وحيوية وجاذبية تضاف على ابتسامتها التي كانت تتسع كلما اقتربت من السيارة ومن جواره، فأخيرًا وبعد سنوات من الجفاف والظمأ والدوران في ساقية البؤس والشقاء والتصارع مع الأيام الصعبة والأبناء العفاريت يحق لها الآن أن تنعم بلحظات قصيرة من الراحة تلتقي فيها مع أنوثتها التي خرجت عنها منذ زمن بعيد، وكانت قد نسيت كل شيء عن الرجال والنساء وما يجري بينهما بخلاف المشاكل والصراعات.

منذ أول لقاء وأول نظرة شعرت نحوه براحة وجاذبية لم يحدثا لها منذ كانت فتاة مراهقة صغيرة، يومها جاء يسأل عن الزيارة وعن أخيه المحتجز للعلاج منذ أيام، ومن وقتها ولم تستطع كتم مشاعرها التي اهتاجت فجأة عن عينيها التي طفقت تبوح له بها في كل زيارة، والآن ربما تكون في طريقها لسرقة لحظة سعادة من دون أن تدري، كيف ولا أين.

فتحت باب السيارة على استحياء تطالع الناس خلفها وعن يمينها، استقبل جسدها البدين المقعد المريح جواره، طالع وجهها قبل أن يدير محرك السيارة، وكان وجه المرأة صديقة المدمن زميل أخيه في المصحة والتي كان يتلهف عليها منذ دخوله المكان هو الذي ينظر إليه ويبتسم، وكان موشومًا بعيون الظِبَاء، ارتجت

السيارة من قوة الدهشة والتأمل، سارت مسافة قصيرة قبل أن يعمل فرامله الحادة بقوة في الشارع من دون داع،

اعتذر إليها برقة غير معهودة، ثم أنزلها من السيارة وسط الطريق، فر بسرعة قبل أن يرصد دهشتها وتساؤلاتها وإحباطها، وقرر في نفس الثانية أنه لن يعود إلى تلك المصحة أو إلى زيارة أخيه مرة أخرى.

نبوءة

رقم غريب ظهر على شاشة هاتفي المحمول يلح بإصرار عنيد زلزل قلقي وفضولي، كان صوت امرأة ناعمًا جميلًا لكنه كان حاسمًا وجادًّا، أخبرني أن أحدهم سوف يقتلني بعد خمس دقائق بالضبط.

أمس أخبرني الطبيب بينما كان يطالع من خلال زجاج نظارته الطبية السميك صورة الأشعة المغناطيسية الخاصة بي بنفس درجة الحسم والجدية أنني سوف أموت خلال خمسة أشهر على الأكثر من الآن، فالأورام استولت على الرئتين وتوغلت إلى الجدران المحيطة تعيث خرابًا ودمارًا.

قبل الأمس بيوم أخبرتني امرأة غريبة المظهر والأطوار جلبتها زوجتي من إحدى الأماكن الصحراوية المدفونة خلف جبال الصعيد أن أمامي خمسين عامًا على ظهر الأرض قبل أن أغادر سريري الذي أرقد عليه الآن وأنتقل إلى جوف قاعها المظلم، كأنني أستأنس بنظرات متأرجحة تطالع فضائي الفارغ وغرفتي الباردة التي لا يدخلها أحد سوى امرأتي المسكينة.

الدقائق الخمس توشك ملامحها على الانتهاء، وملامحي تتحول بطريقة ساخرة إلى شبح غريب الأطوار يرتفع صدره ويهبط بسرعة كبيرة كي يلاحق حفنة من الهواء لكي يسكبها داخل رئتيه المتورمتين، الوقت يعدو

بسرعة خلف الأنفاس الواهنة التي تتعثر في طلوعها إلى فضاء الغرفة الفقيرة، يلهب ظهرها ضربًا بسياطه النارية غير المحتملة، عيوني توشك على الانغلاق، تتبدد أمامي ملامح صورة ذلك الشبح غريب الأطوار، وصوت المرأة الناعم، وذلك الطبيب الذي يطالع صورة الأشعة، والمرأة الغريبة التي جلبتها امرأتي قبل الأمس، كأن كل شيء صائر إلى الهدوء ومع ذلك ما تزال ماكينة التنفس تعمل ولم تسكت بعد.

وجبة غداء فاخرة

كوز الذرة مقبوض بين أصابعها المتيبسة، تقضم حباته المحروقة بشغف لافت، وكأن المقبوض بين أصابعها قطع فاخرة من أسماك الدنيس والجمبري وأشياء أخرى على نفس الشاكلة التي يتلذذ بها أعظم الأثرياء في مطاعم القاهرة الفاخرة، والتي لم تتشرف بالنفاذ إلى مداركها الضيقة خلال حياتها العريضة التي تجاوزت السبعة عقود.

بعض من قواطعها لا تزال صامدة مع الزمن تسرح حشًّا في حبات الذرة المحروقة مثلما يحش الفلاح برسيمه بالمنجل، بعد أن فرغت استدارت إلى الخلف بيسر، ما يزال جسدها النحيل يتسم ببعض الرشاقة والمرونة رغم الخلايا التي شاخت، ورغم العرج الذي يميز مشيتها مثل مشية البطة السمينة عندما تحجل في دهليز الحارة.

واجهت بائع العرقسوس الرابض على رصيف موقف الحافلات كأنه ينتظرها، ضئيل الجسد مثلها لكن يبدو أكثر شبابًا وأثقل همًا، كاهله مثقل أيضًا بإبريق العرقسوس الضخم وإبريق مياه صغير يغسل به أكواب الشاربين، نقدته قطعة عملة معدنية قيمتها جنيهًا واحدًا، ناولها الكوب مليئًا بالفقاعات الحية، رجع خطوة واحدة إلى الخلف في انتظار أن تفرغ وتسلمه الكوب، الآن فرغت من وجبة غدائها الفاخرة التي كلفتها ثلاثة جنيهات فقط لا غير! ما تزال الدنيا في خير.

ابتسمت في داخلها ثم تحركت إلى الأمام في بطء واضح، دلفت معها أعوامها السبعين تصحبها في نهر الشارع الحافل بالضوضاء والبشر وفوضى تصارع سائقي

الحافلات الكبيرة والصغيرة، وجهتها داخل رأسها التي غطتها بطرحة سوداء باهتة، وجلباب أسود انتهك الزمن حرمته وأصبح مجرد خرقة تستر جسدًا نحيلًا، عنيدًا، مدهشًا.

لم تعتد طوال حياتها الحافلة بالمقاومة والألم والصمود أن تكون عبئًا على أحد، منذ أن امتلكت البيت والزوج والأولاد لاحقًا وهي تدور في ساقية الأيام والفقر واللهاث وراء حل مشاكل توفير الطعام وتربية الأبناء، سرقها الزمن، لم تدرك ذلك، ما تزال تجر قدميها سعيًا إلى جميع المناطق في أطراف البلاد حيث تبرق المصالح، وتجذبها الواجبات والمهام الإنسانية.

اعتاد الناس رؤيتها وهي تسعى في الشوارع والميادين المزدحمة الصاخبة، تستقل الحافلات الحكومية المزعجة وتذهب إلى آخر الدنيا.

أعوامها السبعون أثقلت حركتها قليلًا ومع ذلك ما تزال صحبتها ناعمة، سألت أحدهم عن الحافلة الحكومية المتجهة إلى البدرشين؛ أشار إليها الرجل المتعرق المشفق إلى إحدى الحافلات البعيدة الرابضة في الميدان، تحركت في اتجاه إشارة الرجل، المياه البيضاء التي تغرق عينيها الضيقتين ما تزال تسمح لها ببعض الضوء للتعرف على الأشياء، اقتربت من إحدى الحافلات، وطلبت مساعدتها لتسلق سلم الحافلة المرتفع عليها، جاء أحدهم وكان قريبًا منها، سندها بيده، ساعدها في أن ترفع نفسها حتى دلفت إلى الداخل، دعت له دعوتين، استلقت بارتياح على أحد المقاعد الفارغة، انتظرت طويلًا حتى تحركت الحافلة وانتعشت بالهواء، اعتادت على الانتظار طوال حياتها، تدرك جيدًا بينما كانت الحافلة تمضي في ضروب مزدحمة وصاخبة، وبشر يتغيرون، يصعدون ويهبطون، ويتعاركون ويسخرون، أن حياتها كلها مضت على هذه الشاكلة، لكنها ما تزال

تستطيع، تحمل قلب وجسد فتاة السابعة عشر حينما تزوجت، وقادرة على تحدي كل شيء.

الحافلة تصخب، والطريق طويل لا ينتهي وكأنه يتمدد، تنام وتستيقظ، أشكال البشر تتغير وتتبدل، يعلن الكمسري عن الوصول إلى نهاية الخط، لم يبق في الحافلة سواها، سألته عن البدرشين، أخبرها بعدم اكتراث أنها ركبت الحافلة الخطأ، وعليها أن تنتظر حتى يعود إلى الميدان مرة أخرى، وهناك تسأل لتستقل حافلة البدرشين، لم تكترث هي أيضًا، ولم تنزعج، تناولت وجبة غدائها وشبعت، اعتادت كثيرًا على الانتظار، وعلى سوء الحظ، وعلى ألا يكترث لها أحد.

الزيارة

أيقظتني ابنتي الصغيرة فجأة من قيلولة العصر الحيوية، أبلغتني بوجود شخص في انتظاري في غرفة الصالون، سمحت زوجتي بدخوله بعدما أبلغها أنه من أصدقائي القدامى المقربين، ما يزال كل شيء مضببًا من حولي، نصف نائم، ما زلت لا أطيق مثل هذه المفاجآت، لم يعد لدي فضول أو رغبة في استكشاف أو استعادة عوالم إضافية جديدة، أو لأن يتمدد عالمي ويستوعب أشياء أو أحداث أو أشخاص آخرين.

عجزت طفلتي عن الوصف الدقيق لملامحه، قالت بخجل وبسرعة:

- قصير القامة، ويعلق نظارة طبية أنيقة.

بدأ فضولي الذي غلبه اليأس منذ سنوات أن يتحرك بفعل القلق، هاجمتني الأفكار الحمقاء السوداء بينما كنت دالفًا باضطراب في الممر الضيق المفضي إلى غرفة صالون شقتي، أنفاسي كأنها تردد صدى أفكاري المشوشة في فضاء الممر الغائم مترقبًا لقاء المجهول «المصالح تحرك الناس نحو الناس«، هذا مبدأ لا يريحني على أية حال، ترى ما هي المصلحة التي يمكن أن تحيي الموتى وتبعثهم من القبور إلى هذه الدرجة؟ نسج خيالي عنكبوتًا هائلًا كدت أن أمتطيه وأخرج به من غيمة الضباب، لكنه هرب بمنتهى الرشاقة، اصطحب قلقي واضطرابي فوق ظهره وذهب في اتجاه لقاء هذا الشخص الذي بعثه الموت من قبره حتى يلقاني داخل شقتي الصغيرة من دون موعد، لمجرد أنه كان صديقًا مقربًا في ذلك الماضي السحيق.

وجدتني بعد رحلة ممر الضباب في مواجهته فجأة، انتفض منتصبًا في حياء وبرود أيضًا، عيناه مغروسة في الأرض، لم يرفعها عن السجادة العجمي تحت قدميه، لكن شيء ما أزاح الضباب والنعاس من داخلي، وجدتني منجذبًا بقوة دفع هائلة نحوه، عناق طويل استعدت من خلاله أيامنا معًا منذ عقدين تقريبًا، كنا كالملتصقين، نتسكع معًا، نتجول في كل الشوارع والأزقة والحارات معًا، دائمًا كان يشكو، ودائما كنت أستمع ولا أركز في خيالاته الشيقة المدهشة أحيانًا، نتناقش في أحوال الأصدقاء والثقافة والسياسة، كان لا يتركني سوى للنوم في آخر الليل، ولكن حدث زلزال السفر والبعُد، تراجعت وسائل التواصل والاتصالات، ظلت صورته الطفيلية جاثمة على مخيلتي لا تذهب، كما ظلت ثرثرته وشكاياه الفريدة تدهم وجداني كلما مر طيفه في لحظة من تلك اللحظات التي نستغيث فيها بمقاطع قديمة من أيامنا التي كانت حتى نتخفف من وقع لحظة حاضرة مؤلمة، أو ضغط حاضر رهيب غير محتمل يستوجب صده عن طريق استدعاء لحظة ماضية قادرة على الإراحة والتخفيف.

شبحه الطفولي ما يزال ملتصقًا في جدار جمجمتي المنهكة بالأحداث والصور والخيالات والأوهام أيضًا.

اليوم عاد من عمق الغيب وعتمته، لكن يبدو باردًا كالثلج، كأنه شبح أو وهم، عجز عناقي العميق عن نقل درجة حرارته إليه؛ بمجرد ظهوره حي، لحم ودم في سماء وعيي وذاكرتي تملكتني اللهفة، وتملكني الشغف والرغبة في احتوائه والعالم معه بأسره، لم أكن قد تنبهت بعد إلى وجهه الذي ظل على حاله من الجمود وخلو الانفعال، سحب نفسه وكيانه من كياني الملتهب.

خرجت ابتسامة مصطنعة رسمت جمودًا إضافيًا على بشرته الداكنة وتركت نظرة سخيفة تطفر من عينيه الضيقتين الحائرتين، ساورني القلق والاضطراب،

كأني أمضي في حلم غير مريح، جلسنا متجاورين، صدمة ردة فعله أدهشتني، ألجمتني، جعلتني أتحسس وجهي وأدقق في مقاعد غرفة الصالون، كأن هذا اللقاء وحرارته ومشاعره وتلك الذكرى التي بعثها الموت للحياة اليوم شيء يخصني وحدي فقط، تفحصته ثانية وثالثة ولكن ما يزال الوجه جامدًا ومنكفئًا على نفسه، خجولًا جدًّا، مترددًا، مرتبكًا، لا يرفع عينيه عن أرضية الغرفة، كأنه لا يزال في انتظار شخص ما.

داعبته على طريقتنا قديمًا، خرجت من فمه الضفدعي ابتسامة باهتة سخيفة مسطحة، سألته عن أحواله وأخباره، ولكن ما يزال يلفه صمت مريب، لا يتحرك وكأنه شبح قصدني هذا المساء لغرض ما، دخلت زوجتي صاخبة وفي يدها فنجان قهوة وحيد، أيقظتني بصوت مرتفع على غير العادة، سألتني إن كنت سأحتسي فنجان القهوة هنا في الصالون، أو أمام التلفاز مثل المعتاد.

كوب من الشاي بالميرامية

كأنه خبر وفاة، مرقت صورته أمامي بسرعة بينما كنت أقلب في صفحتي على موقع الفيس بوك، شخص ما ينعيه داخل العالم الافتراضي، تجاوزت الدهشة بسرعة، أرجعت الصورة والكلام فوقها وتحتها، استغرقتني الدهشة ثانية واستغرقني الحزن، لم أستطع أن أحدد على وجه الدقة سبب هذا الغزو الشاعري الذي أصابني بغصة رهيبة، غصة الافتقاد.

تزاملنا فترة محدودة، عانينا معًا، شربنا الشاي بالميرامية معًا، تجولنا في طرقات المدينة معًا، تبادلنا القصص وحكايات النميمة معًا، لكن انقطع كل شيء منذ زمن بعيد، التواصل، وأتذكر أنه لم يفكر في الاتصال بي منذ أن غادرت عكس ما فعل آخرون كُثر، طوى الصفحة بقدرة مدهشة كما يطوي صفحة كتاب بين كفيه؛ لماذا إذن كل هذه الغصة المقبضة التي تملكتني على الرغم من مرور كل تلك السنوات على فراقنا؟

دائمًا ما أضبط نفسي حاقدًا على هؤلاء الاشخاص ذوي المقدرة الفريدة على طي صفحات علاقاتهم القديمة بسهولة، والاستغراق في علاقات جديدة، ودائمًا أضبط نفسي حاملًا هم الفراق والافتقاد، هو بالتأكيد رجل قوي، قادر على المرور من بوابات الواقع القاسي بسهولة.

الغصة تتملكني جدًا، تزعجني تلك النظرة الساخرة التي يرمقني بها من داخل العالم الافتراضي، تدفع بي دفعًا إلى الاكتئاب.

تأملته جيدًا بعد أن تمكنت من استيعاب رسالته التي مررها ببساطته المعتادة، كان أنيقًا ومهندمًا مثل عادته، اعتاد ألا يظهر في العمل أو في الشارع وحتى يوم وفاته سوى في بذلته الرسمية؛ منحَته وقارًا وهيبة إضافيين مقارنة بزملائه، نجح كثيرًا في استغلال هذا الأمر ولا يزال.

الآن ينظر نحوي، ابتسامة ساخرة تملؤ جبينه، تلتمع بها عيناه الغامضة غموض الجبال الشاهقة في الظلام، سمعته يسخر مني، يذكرني بالشاي ذو الميرامية الذي يصنعه لي ونحتسيه معًا في لقاءاتنا، كان ذلك في ذروة لحظات تقاربنا، وكانت موجات الصفاء تتهادى في مروج أفئدتنا.

لا يزال يهمس في أذني، يذكرني بمعاركه التي لم يخضها، وصِداماته التي لم تحدث، كان يجيد لعبة تجنب الصدامات الشيطانية، ابتسامته ما تزال تملؤ وجهه، ليست ساخرة هذه المرة بل جادة وحزينة، طالبني أن أنظر إلى داخله حيث اهترأت أحشاؤه، ومسرى الورم اللعين الذي لا يرحم، اندهشت جدًّا، ارتجفت أوصالي، أخبرته بكلمات مرتعشة عن صورته وهيئته الكاملة التي اعتدنا أن نراه عليها، لأول مرة يخبرني أنه كان مريضًا جدًّا، وضعيفًا جدًّا، وفي حاجة الآن إلى كوب من الشاي بالميرامية مثل الذي كان يصنعه وكنا نتحلق حوله وتتحلق بنا الأيام مع تلك الذكريات المحمومة بالدفء والروعة.

طلبت منه البقاء لدقائق، دلفت إلى المطبخ ثم أعددت كوبين من الشاي بالميرامية بالطريقة التي اعتاد أن يصنعها، وضعت أحدهما بجواري والآخر بجوار صورته الباسمة وبدأنا نرتشف معًا أكواب الشاي مثل الماضي.

أصابع حلوى العسلية

كل الذين يمرون في الميدان يعرفونه، هذا الجسد الضئيل الذي يتدثر بأسمال قديمة مهترئة أصبح مألوفًا لدى جميع الكائنات التي تسعى داخل موقف الحافلات الكبير، وجه كمثري نحيف، صاحب بشرة سمراء مكسوة بالغموض والفقر، يطالع المارة القلقين الذين يغص بهم الميدان، عيناه غائرتان، تلتمعان بابتسامة عجيبة، مفارقة للحالة العشوائية التي يبدو عليها هؤلاء المارة الهلعين حينما يصطكون ببعضهم البعض، وبحماس موفور وهم في طريقهم نحو الحافلة التي ربضت توًا أملًا في الاستحواذ على مقعد ترتمي فوقه أجسادهم المنهكة، وهمومهم التي تصطلي بها أدمغتهم.

كان متكئًا بأريحية على الحائط الخشبي الخاص بأكشاك نظار المحطة، ساقاه مفرودتان إلى منتهاهما، شعر الذقن النابت على وجنتيه يشبه إلى حد كبير تلك اللوحة العبثية للميدان في هذا النهار، لا يستطيع مخلوق من أولئك الذين يشكلون عناصر اللوحة أن يقول لك متى ظهر هذا الرجل ومتى يختفي وما الذي يدور في رأسه في أثناء جلوسه مسترخيًا الآن مستمتعًا بمطالعة البشر، وبتلك النسمة الباردة التي أثلجت وجهه الساخن المحروق من الشمس والفقر.

نطر نفسه مع استقرار الحافلة وانتهاء تدافع الركاب داخلها، انتصب فوق الأرض، مال بجذعه ليلتقط بأصابعه كيسين من البلاستيك أحدهما محشو بالمناديل الورقية، والآخر امتلأ بأصابع من حلوى العسلية البنية اللون، يدور بهما بين زبائنه من ركاب الحافلة الصاعدين إليها توًا.

مشيته وحركته وحتى انفعالاته مع أحد الزبائن الذي ينقده قروشا ثمن المنديل الورقي الذي اشتراه توًا تشبه إلى حد كبير حركة الإنسان الآلي الذي برمجوه ليؤدي حركات بسيطة تلفت أنظار الناس، لكنه لا يلفت أنظار أحد، يمضي بينهم حاملًا بضاعته الرخيصة، يعرضها بصوته الخفيض، لا يلتفت إليه أحد، يعرفهم جميعًا، وهم كذلك يعرفونه، لكن قروشهم قليلة مثله، وقد أوصدوا دونه مداركهم عن آخرها

بالمزاليج، ربما هو يدرك ذلك أيضًا، لكن عليه أن يتم دورته إلى منتهاها داخل الحافلة، ثم يهبط وينتظر الحافلة القادمة، والركاب الآخرين القادمين، لعل أحدهم يكون شارعًا نوافذ مداركه لشراء علبة مناديل أو إصبعين من حلوى العسلية.

فرقعات

ثلاث فرقعات مدوية في حضن الليل، قلوب هلعت، كلاب مذعورة نبحت، نوافذ خشبية اصطكت بالجدار بقوة لتنفتح على المشهد..

في اتجاه المسجد يوجد فراغ وظلام، وأصوات لمحركات دراجات نارية تبتعد ثم صمت تام، شبح لكائن ضخم مسجي من دون حراك فوق حجارة سلم المسجد في آخر الشارع، تبين لحيته الشعثة رغم ضوء عمود الإنارة الحكومي الباهت، صمت مرعب أضاء المكان بالخوف لدقائق قبل أن يصرخ صوت نسائي يشق العتمة والخوف:

- يا خرابي! بيقتلوا بعض، الحقوا الراجل سايح في دمه يا خلق.

كانت النافذة المطلة على المسجد تشع ضوءًا وحرارة يبين منها بوضوح شعر رأس السيدة التي تستغيث، دقائق قليلة مرت قبل أن يغص الشارع بالناس والشرطة والأقاويل.

شمس وقمر

هكذا قالوا في المذياع قبل دقائق: «إن الماء سوف يغلي في الشمس هذا اليوم، على الجميع أن يلزموا جحورهم وإلا احترقت رؤوسهم، وربما يتبخرون مثل الماء.«

الناس في بلادي مثل النمل، لا يأبهون لما يقوله المذياع، ولا لمسألة تبخرهم في السماء، سعوا بنشاط يغطون سطح الأرض ويغطون الشمس، وقفوا في الميادين والساحات، وعلى الكباري والنواصي ينزفون عرقًا ودموعًا، فشمس يونية تضرب أفواجهم من دون رحمة حتى تعبت.

عاد صوت المذياع هذه المرة أكثر هدوءًا واتزانًا، أخبر الناس أن القدر كان رحيمًا، وأن عرق الملايين الذي سال في الشوارع هذا اليوم كان بمثابة المبرد الذي أخمد حرارة الشمس الرهيبة ووأدها، أخبرهم كذلك عن ضرورة عودتهم إلى جحورهم قبل أن يظهر القمر الذي قرر إخفاءهم من الساحات والنواصي إلى جهات غير معلومة، عاد نفر قليل من النمل إلى الجحور خشية الإخفاء، وبقية الحشود ظلت تحملق في السماء منتظرين ظهور القمر، غاب القمر، هدرت الحشود، وما زالت بيانات التهديد والوعيد تتكرر في المذياع وعلى الشاشات التي نصبوها في الميادين والساحات والنواصي، عيون الحشود الهادرة تحولت إلى

كشافات ضوء أحال الساحات إلى ضحى نهار منع خروج القمر من مخبئه، ومنع المذياع من تلاوة بياناته السخيفة الكاذبة.

تمدد النهار مع اتساع حدقات الملايين التي سكنت الشوارع رافعين رايات النصر.

تحت البلاطة

صديقي رجل شجاع إلى درجة الحماقة، أخبرته كثيرًا عن ضرورة تجنب السير في الطريق المختصر الصحراوي بين البنايات الممتلئ بجحور الثعابين والأفاعي السامة والكلاب الضالة، ولم يستمع إلى نصيحتي، لديه شغف جارف بالاختصار والتعجل، ذات مرة لدغه ثعبان غير سام، وأخرى هجم عليه كلب ضال، عقر مؤخرته ذات ليلة سوداء، ارتعب ساعتها، ذهب إلى المستشفى في ساعة متأخرة لتبتلع عروقه المصل المضاد لسعار الكلاب، ومع ذلك مستمر في غيِّه؛ لا يستمع إلى كلام أحد.

أخبرني ذات يوم عن رغبته في عمل مشروع تجاري، يجلب بضاعة من الخارج للفتيات الأثرياء وهي ملابس داخلية نسائية، ويرى أنه سوف يحقق أرباحًا كبيرة.

هيئته الشعثة وهندامه المهلهل لا يوحيان بإمكانية تحقيق تلك الرغبة من وجهة نظري، لكنه مصر على افتتاح المتجر قريبًا وجلب السراويل وقمصان النوم للفتيات والنساء من أحد محلات لندن الشهيرة، لكن الأمر الذي تعمد عدم لفت انتباهي إليه أنه سوف يحصل على قرض كبير من أحد الأشخاص المجهولين، وسوف يسدده من أرباح المشروع، لم أستغرق في الدهشة والتعجب كثيرًا، يومان اثنان فقط فرا واختفى معهم صديقي، تقعرت انشغالاتي، لم أعد أهتم بانفراط الأيام والأحداث، صديقي الوحيد الذي يؤنس غربتي في هذا العالم تبخر فجأة وراحت معه مساحة الإزعاج والأخبار التي يمدني بها وتشعرني أني متصل بهذا العالم العجيب.

من المهم جدًّا أن يكون للمرء شخص مثل هذا الصديق، ثرثار، واسع الخيال، ومغامر من طراز فريد، ولكنه مزعج كثيرًا، يشعرني دائمًا أنني أعيش خارج العالم، جاء صوته عبر الهاتف ذات مساء يخبرني فيه عن ضرورة أن يلقاني في الحال حيث أن الأمر لا يحتمل التأجيل، ساعتان فقط انصرما وطرق الباب بشدة، أعيش وحيدًا في شقتي المتواضعة بإحدى المدن الجديدة المنفصلة عن القاهرة - عاصمة أم الدنيا- بعشرات الكيلومترات، كان يقف أمامي شخص آخر غير الذي أعرفه، شارب كما القوس المقلوب متصل بلحية خفيفة كما الدائرة الهندسية ووجوم مقلق ثم دموع انفرط عقدها بمجرد أن ارتمى في حضني.

في داخل شقتي المتواضعة الخالية من الأثاث تقريبًا بعد أن استولت عليه زوجتي بحكم قضائي قبل هجرها لي بعد ستة أشهر زواج فقط؛ تقول إنني مخلوق خجول لا يغادر غرفته ولا يتحدث معها، ولا يعاشرها معاشرة الأزواج.

هذا ما قالته في المحكمة واقتنع به القاضي، لم أعبأ بكل ذلك، ظل صديقي الثرثار صاحب الخيال الواسع بجواري لم يتركني ثانية واحدة، منيت بفيض هائل من ثرثرته وأفكاره الجريئة أيامها، فقد أخبرني ذات مرة أنه يمكن أن يساعدني في استدراج زوجتي إلى مكان ما وترتيب فضيحة جنسية كبيرة لها يمكن على إثرها مقايضتها بالتنازل عن كافة القضايا التي قدمتها ضدي والتزام الصمت والانصراف في هدوء، لم ترقني الفكرة ولا جنونه الجامح، رضخت لكل ما قالت به المحكمة، وأنا عادة أرضخ لأي شيء وكل شيء، على عكس صديقي الثرثار المغامر.

جلسنا على قطعة من القماش افترشها في منتصف الصالة في مواجهة باب الشقة المصفح الذي اضطررت إلى جلبه بسعر باهظ بعد استلامي الشقة خشية سرقتها أو احتلالها بواسطة الأغراب الذين يتلصصون ويقتنصون الفرص لاحتلال الشقق الخالية في المدن الجديدة هذه الأيام، هذه القطعة من القماش تستهلك

كل حياتي تقريبًا، جلوس، رقاد، نوم، وحتى عندما تعلقت بذراعي إحدى الفتيات ذات مساء بينما كنت أفتح باب الشقة، أجلستها ورقدنا معًا فوق قطعة القماش المهترئة.

دارت عينا صديقي الجائعة في جوانب الصالة، يبحث عن شيء ما ربما مدفون تحت البلاط، جلسنا على قطعة القماش، وما يزال بصره يخترق البلاط، طلبت منه أن يتكلم فقام يتمشى في الصالة، تركته وشأنه، دخل المساحة التي كانت غرفة نومي مع الغادرة زوجتي، ثم عرج على المساحة التي كانت غرفة الصالون، ثم دخل المطبخ، صنع كوبين من الشاي وعاد بنفس النظرة (البحث في باطن الأرض)، انتظرت مباغتته ولكن دون جدوى، ما زال محملقًا في بلاط الأرض، مضى نصف النهار، شربنا شايًا وقهوة، انتظرت أن يتحدث، ولكن لم ينطق، اضطررت أنا أن أنطق، طلبت منه تفسيرًا لمهاتفتي وزيارتي وحملقته الدائمة في بلاط الشقة، عاد لمواجهة عينَيَّ، شاربه ولحيته الجديدان لم يتمكنا من طمس ملامحه.

أخبرني عن فشل مشروعه لبيع ملابس النساء الداخلية، قال:

- كل شيء مضى على ما يرام، افتتحنا متجرنا في أحد المولات العظيمة في مدينة 6 أكتوبر، ملأناه بآلاف القطع التي جلبناها من محال «هارولدوز» في لندن والمنسوبة إلى أعظم الماركات العالمية، انتظرنا تزاحم الفتيات والنساء للاستحواذ على بضاعتنا، مضى الأسبوع الأول ولم نبع فيه سوى قطعتين فقط.والثاني والثالث والرابع مروا ولم نبع شيئًا، ولا قطعة، تخيل! عجزنا عن تفسير الأمر، انشغلنا بالخسارة الكارثية المقدمين عليها، شريكي وصاحب رأس المال فقدا صوابهما، بعد أن ضربني على رأسي ومؤخرتي قدم الشيكات التي وقعت عليها نصيب مساهمتي في رأس المال إلى النيابة، أنا الآن في انتظار السجن.

كاد الظلام يلف الكون في الخارج، استقمت رافعًا جسدي لإضاءة المصباح، تساءلت عن البضاعة ولماذا لم يسوقوها في المتاجر الأخرى، أطرق برأسه إلى الأرض مرة أخرى، زام، غمغم بعبارات ثقل عليّ فهمها، وأخيرًا استعاد عينَيَّ في عينيه ثم قال:

- ذهبت أبيع القطع للمتاجر ولكنهم أخبروني أنه لم يعد هناك سوق لملابس النساء الداخلية، توقفت الفتيات والنسوة عن ارتداء الملابس الداخلية حسب الموضة الجديدة.

باغتته مندهشًا:

- وماذا يرتدون الآن؟!

- لا شيء.

هكذا أجابني بعد أن أطرق في الأرض مرة أخرى، لم يتركني أتمم دهشتي، فقد جرى بسرعة نحو المطبخ، جاء في يده مطرقة صغيرة، ظل يطرق على البلاط أمامي بقوة وعنف مرددًا:

- هاطلّع الفلوس اللي تحت البلاطة عندك، مش هادخل السجن.

الدقات تتسارع، والدهشة تتواتر، حاولت إيقافه بإصرار، ولكنه ظل يدق الأرض بإصرار، عيونه نارية، ذراعه مثل لوح من الخشب الزان القوي، وصدره ينفث براكين رهيبة من الغضب والقهر، عاجلني بطرقة على رأسي، أصبح وحيدًا في الشقة يفعل ما يشاء من دون إزعاج.

استعدت وجودي بعد عدة ساعات، أرعبني لون الدم المضمخ على رأسي وجبهتي وعلى الأرضية، لم يكن موجودًا في الشقة، لكن الخراب والتدمير كانا حاضرين بقوة، بلاط الأرضية تم اقتلاعه بالكامل وكذلك الأدوات التي كنت أستخدمها في مطبخي، باختصار لم يعد هناك شيء يصلح للحياة.

الديك الرومي

كأنه رأى هذا المشهد بكافة تفاصيله قبل أربعين عامًا، أو ربما راوده في أحد الأحلام التي تهتك ستر رقدته غير المريحة هذه الأيام وتسلمه إلى كوابيس الأفاعي ومصائد شياطين الرعب ممسوحي الملامح.

كان عمره حينئذ عشر سنوات بالتمام، يستطيع أن يتذكر ذلك جيدًا، في هذا اليوم استدعاه ناظر المدرسة، رجل ضخم الجثة، متباهي، العصى الخيزران الطويلة لا تفارق قبضة يده الحليبية الغليظة، منتفخ الأوداج، تلاميذ المدرسة منحوه لقب الديك الرومي بسبب لغده الكبير المشرب بحمرة لون بشرته ووجهه الأبيض الحليبي الضخم، شعر رأسه الأبيض المهيب يصطلي بضوء الشمس الفضي فيبدو مثل عرف الديك المتباهي بلون الفضة فوق رأسه كما التاج فوق رأس ملك، صياحه الدائم اعتاد أن يسبقه في كل مكان، اعتاد أن يخطر بين البشر مثل ملك أو امبراطور.

كان الرجل يقف فوق إفريز من البلاط ناتئًا عن أرضية حوش المدرسة الرملي الذي يفضي إلى مدخل أحد مباني المدرسة الحديثة الذي شيدوه مؤخرًا بالقرب من باب الخروج مستقطعين جزءًا كبير من حوش المدرسة لبناء فصول جديدة لتقليل الكثافات داخل الفصول واستيعاب مزيد من التلاميذ الجدد.

كان ذلك وقت انصراف تلاميذ المدرسة إلى منازلهم، الحوش مزدحم بالهرج وأطفال يجرون في كل اتجاه سعداء بالانعتاق والتحرر، لمحه بعين الصقر الجاحظة المتسعة التي اعتادت الدوران في كل اتجاه، كان يقف فوق الإفريز يرقب الحركة والتلاميذ في جدية بالغة، صوته الضخم جلجل واخترق ضوضاء الأطفال وجلبتهم وشغبهم حتى وصل إليه صائحًا عليه باسمه الذي يعرفه جيدًا، كان الصبي يعلم أنه معرفة والده، انتبه بخوف وترقب، توجه نحوه في وجل، طالعه من أسفل، صوت الناظر لم ينخفض حتى بعد مثول الصبي قبالته بالضبط، أخبره وكأنه يتحدث في ميكرفون إذاعة المدرسة:

- بلغ والدك يجيني المدرسة بكرة عاوزه في موضوع مهم.

المدرسة كلها سمعت هذا الاستدعاء الغريب في لحظة انصراف الجميع.

بمجرد رجوعه أخبر أمه بما حدث، غمغمت بعبارات غير مفهومة قبل أن تقول:

- لما يرجع أبوك نقول له.

في المساء على مائدة الغداء جلس ابوه في الصدارة بهيئته الضخمة العريضة، لكنه بدا منكسرًا، الصوت واهن، الحيوية غابت، طوال جلسته كان يتحسس صدره بأطراف أصابعه من فوق جلباب البيت، تجاهل تساؤلات أمي وعيونها المثبتة في صدره، لم يتمكن من استكمال

طعامه، رفع نفسه بصعوبة من على الأرض، حجل نحو الحمام وأمي وراءه متسائلة وهلعة، لم يلتفت خلفه ولم يرد لها جوابا فقط يقول:

- شوية تعب صغيرين وهابقى كويس.

جلس الصبي يرقب حركة أبيه المتثاقلة المرتجفة ووجه أمه الهلع في وجل، غاب في الحمام وأمه متسمرة خلف الباب تتنصت على التفاصيل، كأنه أفرغ كل شيء دخل جوفه منذ عدة أيام، أخيرًا خرج الرجل شاحبا ينثال عرقه بغزارة، طوقته المرأة بذراعيها من ظهره ساندة إياه بقوة غريزية، تحركت به في بطء وتثاقل متوجهة نحو غرفة النوم، لسانها يرطن بعبارات لا يفهمها صبي السنوات العشر.

جدار الأمان بدأ يتخلخل أمام عيني الصبي الهالع، طفرت دمعة أخيرًا استقبل بها أمه الخارجة توًا من الغرفة، لم تكن أحسن حالا منه، تساقطت حبات دموعها بينما هي تهرع نحو المطبخ تجهز شيئا دافئا سريعا قبل خروجها لطلب المساعدة وإحضار طبيب. أمرته بسرعة إبلاغ عمه القاطن في نفس الشارع، دقائق مرت بطيئة، غامضة وكئيبة، وقاطن الغرفة المغلقة والدي يتحول إلى شبح مذوي الملامح يستعد للاختفاء، امتلأ البيت بالرجال والنسوة، ارتسمت على وجوههم علامات الجزع والانقباض، الدهشة أصبحت علامة مسجلة تتطبع بها وجوه الجميع، جاء الطبيب يرفل في بذلته الصوف السوداء الشتوية وعمي

يحمل حقيبته «السونسونايت» ويهرول أمامه طالبا توسيع الطريق للدكتور.

الصبي الهلِع يحاول إخفاء نفسه داخل تلافيف الزحام وأنفاس الناس الدافئة، يترقب جدار الأمان الذي يهتز ويتخلخل داخله؛ «رجل الغرفة المغلقة القوي المهيب القادر على كل شيء بات يتصدع، سوف ينهار كل شيء»، هكذا خرجت الفكرة من داخله دون أن يقولها أو حتى يدرك معناها، فقط يستشعرها، ويستشعر الخطر القادم من رحم الغيب.

دقات قلب الصبي الصغير تتسارع وتصدر صوتا يسمعه القاصي والداني، لم يعد يحتمل الدق ولا لحظات الترقب المهولة، تسلل إلى داخل غرفة المريض، الطبيب ما زال يحاول إنعاش القلب، يطلب مساعدة من حوله وفق توجيهاته، كأنه يسابق لحظات قد سبقته بالفعل لكن خيوط الأمل الواهنة دائما مغرية، أمه وأعمامه وأخواله الذين حضروا على عجل يفرضون سياجا حول السرير، حسبه الصبي سياجًا من الأمان، زحف تحت السرير، اتخذ مكانه في وضعية النوم على ظهره، ضوضاء الهلع تسري من داخل غرفة النوم إلى خارجها وكذلك من خارج غرفة النوم إلى داخلها، أيقظه فجأة من رقدته تحت السرير صوت الصراخ الرهيب والعويل، ميز الصوت الأقوى بوضوح أنه صوت أمه، اخترق كيانه وانهار أمانه الآن.

»قضي الأمر.«

هكذا قال الطبيب وهو يعلن حالا نبأ وفاة الأب المهيب.

اندفع كل من بالخارج إلى داخل الغرفة المكلومة، شارك الكثير من النسوة أمه صراخها ونواحها، لم يعد هناك مكان للسيطرة ولا للتحكم ولا للحكمة، حاول بعض الرجال السيطرة ولكن هيهات.

خرج من تحت السرير لا يستطيع البكاء، جفت الدموع والمشاعر، الشيء الوحيد الذي بقيَ عالقا في الذاكرة ولا يزال يغلي صداه داخله هو استدعاء الديك الرومي له وقت الظهيرة في أثناء انصرافه من المدرسة وصياحه في وجهه بضرورة حضور والده للقائه غدًا بالمدرسة.

أخبروه حينما دخل هذه المدرسة في يومه الأول أن الناظر صديق الوالد، لكنه لم يدرك معنى ذلك ولم يهتم به، ومع الأيام نسيَ كل شيء.

الآن هاجسه العظيم لِمَ كان يطلب الناظر لقاء أبيه غدًا، عموما لم يتمكن من إخباره بأمر هذا اللقاء، لكنه الآن ينبغي إخباره قبل أن يأخذوه في النعش ويمضون به إلى المقبرة!

ظل حائرًا يلتفت حوله، يسعى لتحين فرصة ليرفع الغطاء عن وجه والده ويخبره أن الديك الرومي سوف يلقاه غدًا في المدرسة لكنه لم يقدر أن يفعلها، ربما ارتعب من فكرة مخاطبته وهو نائم، أو ارتعب من كشف الغطاء عنه في حضور كل هؤلاء الناس المرابطين في غرفته، لم تغادرهم الدهشة إلى حين الاستعداد لبدء مراسم التكفين والدفن،

اختفى أبوه من البيت تمامًا وفي اليوم التالي رأى الديك الرومي داخل سرادق العزاء، بمجرد أن لمحه الرجل قام على الفور، احتضنه بقوة، همس في أذنه:

- بكرة تيجي المدرسة، لو احتجت أي حاجة تبلغني فورا.

أخذته المفاجأة والاضطراب، عقدت الدهشة لسانه، لكنه حاول ونجح حسبما يعتقد، أخبره بصوت واهن مرتعش لا يكاد يبين مع رجفة جسده وصوت المقرئ الصاخب:

- حاولت أبلغه أنك عايزه بكرا لكن ماقدرتش.

الديك الرومي سمع تمتمات وغمغمات، أشفق على الصبي، احتضنه ثانية، استدعى أحد أعمامه الواقفين في مقدمة السرادق، أبلغه بقلقه على الصبي وضرورة العناية به، واستعداده للمساعدة.

دارت السنوات بسرعة فرمت في طريقها كل شيء، حتى مشهد المائدة ولحظة انهيار أبيه القوي المهيب تبخر مع استطالته واتساع تلافيف دماغه وقوة حضوره في استعادة جدار الأمان مع أمه وأقاربه، أفاقته اليوم تلك الوخزة المؤلمة التي غزت صدره بصورة مفاجئة، لم يتحسب أن يزور طبيبا يومًا ما، فاجأته الوخزة بينما كان يجلس على طاولة طعام الغداء بين زوجته وأبنائه الثلاثة، بدأت المسألة بوخزة بسيطة ثم توالى الوخز الذي خلّف آلآمًا رهيبة لا يستطيع البوح بها.

تسحبت أطراف أصابعه بهدوء تلامس صدره حذرًا أن يراه أحدٌ من الجالسين المنهمكين في طعامهم، خرجت من تلافيف ذاكرته تلك الصورة لوالده في ذلك المساء القديم عندما تحسس صدره في مثل هذا الوقت قبل أن يترك طعامه ويستقر في غرفته التي خرج منها إلى قبره، حضر أمامه في وضوح لافت الديك الرومي ناظر المدرسة وهو يصيح ويطلب منه إحضار والده لأمر هام، غزو الألم يتصاعد من دون سقف، يحاول الصمود، ومواجهة الديك الرومي الصاخب، علم عن طريق الصدفة أنه مات منذ سنوات بعيدة، ولم تعد المدرسة مكانًا صالحا للتدريس والعلم، تنبهت أم الاولاد، حاولت مساعدته للوصول إلى غرفة النوم، طاوعها بكل قوة، انحرف بها إلى الحمام، شعر أنه في حاجة إلى إفراغ معدته مثلما حدث مع أبيه بالضبط، مكث داخل الحمام نصف ساعة كاملة يكابد مشقة دوران الرأس وإفراغ معدته، زوجته أمام الباب تسترق السمع لتفاصيل ما يجري داخل الحمام في هلع بالغ مثلما حدث مع أمه أيضًا، خرج وقد ارتاح نوعا ما، تمكن من سند نفسه، لم يعد في حاجة إلى ذراعيها الآن، في طريقه إلى سريره تأكد أنه رأى هذا المشهد بتفاصيله قبل أربعين عامًا، وأنه لن يخرج من هذه الغرفة سوى إلى مقبرته، وأن الديك الرومي ما زال يصر على أن يلقى

أباه غدًا في المدرسة التي لم تعد مدرسة ولم يعد الديك الرومي يصيح فيها ويصخب في التلاميذ مثل الماضي، ولم يعد أبوه متاحًا حتى يذهب إلى موعده مع الديك الرومي غدًا في المدرسة، كما أنه ربما لن يخرج من غرفته على قدميه عقابا له على عدم إبلاغ والده بموعده مع الديك الرومي في المدرسة.

كاميرات آدمية

إذا كنت تعتقد أنك تسير في الشارع من دون أن يراقبك أو يتبع خطواتك أحد فأنت واهم، جرب أن تنظر خلفك فجأة وأنت تسير وستكتشف أن شخصًا ما يتتبعك، يطلق أعيرة عيونه النارية بين كتفيك، إنها حقيقة لا ينبغي أن تسخر منها، أو تقلل من درجة أهميتها، فلم يعد في هذا العالم شيء تستر به عورتك.

تأكد أنك تسير في الشارع هذه الأيام من دون سروال لكنك تتوهم أنك مستور بسروالك الذي اشتريته من أحد شوارع وسط البلد التجارية المشهورة بعلاماتها التجارية العالمية.

ذات مرة بينما كنت أتسكع في شارع سليمان بالقرب من ميدان التحرير، فاجأتني امرأة بدينة، وجهها مخروطي مثل كوز ذرة كبير مغلف بالخضار جلبوه توًا من الأرض، أنفها كبير مقوس مثل الخطاف الحديدي الذي يرفعون به السيارات المتعطلة في الشوارع، كنت وحدي وقتها، مدت كفها الثقيل تصافحني؛ تهيبت الأمر من الدهشة، شعرها الشعث، أسمالها الممزقة يشيان بأنها امرأة غير طبيعية مثل المشردين الذي اعتدنا الاصطدام بهم في الشوارع هذه الأيام، ابتسمت من جفولي، ما زال كفها الثقيل معلق في الهواء، أخبرتني بهدوء أنها تعرفني جيدًا، تعرف كل تفاصيلي، شقتي الفقيرة التي أقطنها في الحي الشعبي، ومديري في العمل الذي يتلذذ بإذلالي كلما طاف عليه خيال وجهي، وزميلتي التي عشقتها لكنها ركبت قطار الراحة عند أول محطة وتزوجت من شخص يملك محلًا تجاريًا لبيع الهواتف المحمولة، وتفاصيل راتبي الذي أتقاضاه في أول كل شهر، والأماكن التي يتسرب إليها بسرعة، حتى تفاصيل تلك المرأة البائسة التي تهاتفني

عبر الفيس بوك تعلمها جيدًا؛ ارتعبتُ، مال وجهي نحو الشارع المتخم بالسيارات والبشر والأسرار، بحركة تلقائية رغماً عن إرادتي تسلل كف يدي الأيسر يتحسس خلفي، مكان لباسي الداخلي النظيف الذي ارتديته في الصباح، لاحظت ذلك بسرعة، وأخبرتني وقد بدأ يبين على وجهها علامات الملل وعدم الاكتراث:

- اطمئن، ما يزال في مكانه، لونه أزرق عليه خطوط خضراء.

ضوضاء الشارع تتصاعد داخل رأسي جراء تلك الآلة الرهيبة التي تنغرس في الأسفلت وتبقر باطنه بواسطة السن الحديدية الغليظة المدببة الرهيبة التي تعمل عن طريق ضغط الهواء فتشق الأسفلت الجامد وتصدر صوتًا لا يطاق، هذا الصوت القبيح الهادر قادر على استثارة التوتر والتهيج لدى جميع المتواجدين في محيطه.

واجهتها بحسم بعدما تيقنت أنني أقف أمامها عاريًا تمامًا:

- والآن ماذا تريدين مني؟

أجابت بسرعة ومن دون تفكير:

- أحتاج إلى نقود للسفر والعودة إلى منزلي في بني سويف.

تحسست بنطالي، ثم أخرجت حافظة نقودي المحشوة بأوراق كثيرة لا حاجة إليها، اصطادت أصابعي ورقة من فئة عشرين جنيها، قدرتها لتكاليف السفر، دارت عيونها لاهثة مفجوعة ما بين حركة أصابعي والمحفظة المنتفخة بالأوراق غير النقدية، كأنها بهتت من مرأى عشرين جنيهًا، كانت تتوقع ورقة بمائة أو مائتين، اتسع نطاق الإحباط، قالت:

- دائمًا أنت هكذا، شحيح في كل شيء، عواطفك ونقودك، السفر يحتاج إلى أكثر من ذلك.

صدمتني هذه العبارة بقوة على جمجمتي، غلو الدم في عروقي ورأسي، فهذه الوقحة تجاوزت كل الحدود، ترددت قليلًا قبل أن أضع الورقة في كفها الثقيل، دهمتني موجة مفاجأة من الحياء والرعب بينما أقف عاريًا تمامًا أمامها وهي تراقبني بهذه الطريقة، وتحملق في تفاصيل خلاياي وكأنها تبتزني وتساومني، على العموم كفها الغليظ كان أسرع من ترددي، أدركت أنني سوف أعيد ورقة النقود داخل المحفظة وأنصرف لحالي ولن أخضع لابتزازها، فأسرعت باختطاف الورقة من بين أصابعي بسرعة.

أشهد أن هذه السيدة قارئة جيدة للأفكار والمشاعر، جفلت عنها بسرعة ألتفت يمينًا ويسارًا، لم يعد يشغلني في هذا العالم سوى التفكير في الكاميرات التي ترصدني وتخترق ملابسي وجلدي وتكشف كل شيء، إنها كاميرات آدمية ترصدك وتتبع كتفيك في الشوارع المزدحمة، من يومها وقد اعتدت أن ألتفت يميني ويساري، أستدير بكامل جسدي فجأة في حركة التفافية لأكتشف ما الذي يجري خلف ظهري، مسألة مرهقة وفي غاية الصعوبة.

كنت في كل مرة أكتشف أمورًا تجري خلف ظهري لم أكن أعطي لها بالًا، ذات مرة كان هناك رجلان وامرأة يسعون خلفي، يتحدثون بالهمس واللمز، المرأة في كامل زينتها، أربعينية على ما تبدو في تلك الترهلات التي تتبعثر في بطنها وجانبيها، والساقين الممتلئتين المكتنزتين داخل البنطال الأسود الجذاب المثير، بشرتها ما تزال تقاوم التجاعيد المتحفزة للانقضاض على هذا الجمال الخمري المسكين الذي افتقد طراوته توًا، والعيون السوداء المدهشة ترشق في كتفي، والرجلان بكامل هيئتهما يغوصان في بذلتين من طراز قديم للغاية صنعهما خيَّاطٌ عجوز

يستأجر متجر إيجار قديم منذ خمسين عامًا في زاوية الشارع الذي أسكن فيه، الرجلان يشبهان بعضهما تمامًا، ملامحهما مألوفة، صاحب الوجه البيضاوي يثرثر، والمرأة والرجل الآخر صاحب العيون العسلية يتبختران، ذراع المرأة عالق بذراع الرجل، أنوفهم ورائي، عيونهم ورائي، لا تغادر كتفي، كلما أسرعت الخطى، أسرعوا، كلما ابطأت، تباطؤوا، وإذا توقفت يتوقفوا أيضًا؛ سخنت عروقي من الغيظ، هؤلاء الثلاثة يراقبونني بالتأكيد، قررت استجوابهم، فتوقفت في زاوية الشارع في انتظارهم، تحولت أبصارهم عني، استكملوا سيرهم من دون أن يعيروني أدنى اهتمام، تملكني الخوف، زادت سخونة العروق، أنفاسي تتدافع بكثرة في الهواء الساخن الخانق، لم يعد لي سيطرة على عيوني وهي تنفلت في جميع الاتجاهات تبحث عن الكاميرات الآدمية، تجاوزتني المرأة والرجلان بمسافة كبيرة، وكاميرات كثيرة أخرى تركض خلفي تهمس وتثرثر وتكتب التقارير.

قادني خوفي بشجاعة خلف ثلاثتهم، أسرع كلما أسرعوا، أتمهل كلما تمهلوا، دخلوا زقاقًا ضيقًا فيه الرجال والنساء والأطفال الذين يملؤون المكان ضجيجًا وفوضى، يتسع كلما اقتربت من الشارع المفضي إلى شقتي في ذلك البيت القديم الآئل إلى السقوط، دخلوا البيت المقابل القديم الآئل إلى السقوط أيضًا.

تأملت ظهورهم وخلفياتهم، خلفية المرأة مميزة للغاية، مثيرة، رجراجة، الرجل الذي يثرثر معها توقف فجأة، نظر خلفه، في اتجاهي، ورغم ذلك لم ينبس، قررت أن أخبره أني أعرفه جيدًا، وأعرف تفصيلاته وخاصة ما يتعلق بتلك المرأة الجذابة صاحبة الخلفية الرجراجة، استجمعت كل ما أملك من مكر وخبث، تحرك لساني رغمًا عن إرادتي، نطق اسمه واسم صاحبه الرجل البيضاوي الوجه، أخبرتهم بهدوء خبيث عن امتحانات التلاميذ التي يبيعونها كل عام، وعن ألوان ألبستهم الداخلية التي يرتدونها الآن وكذلك تلك الموجودة داخل خزاناتهم، وأخبرتهم كذلك عن مقاسات أعضائهم الداخلية بدقة مدهشة، وعن هذه المرأة الجذابة التي

نجحوا في إغوائها الليلة لتمضية السهرة في الشقة المشتركة التي يستأجرونها من الباطن مقابل أن ينجح ولداها الفاشلان

في المدرسة، تفرسا وجهي بدقة، لم يبين أي استغراب أو دهشة على ملامحهما التي اكتست باللا مبالاة تقريبًا، المرأة التي بصحبتهما ابتسمت وطالبتني بالكشف عن ألوان ملابسها الداخلية، اضطررتُ أن أجفل بعينيّ بعيدًا عنهم مكتفيًا بسماع دعوتهم للسهر معهم تلك الليلة، كانت الدعوة تتردد خلف ظهري بإلحاح.

اللص التائب

أيام زمن اليفوع لها مذاق خاص، المرح، الانطلاق، الخفة، راحة البال، المقالب والضحك المستمر، ثم العودة إلى البيت منهمكًا إلى السرير مباشرة، ورغم ذلك كنت حريصًا على الصلاة في المسجد القديم الذي يحتل المدخل الغربي لبلدتنا، لم يكن ضخمًا ولا مهيبًا بل كان مسجدًّا متواضعًا في بنايته وفرشه، صحنه متسع، يطل على الشارع الرئيسي بفضل البوابة الرئيسية العتيقة المفتوحة دائمًا، والتي تأكل مساحة كبيرة من جدران جهته فتكشف كل شيء يدور داخل المسجد للعابرين في الطريق، يبدو الناس في الداخل كأنهم يصلون في الشارع، منارته رفيعة السمك باسقة، تبزغ مثل منقار بطة بغالية مترهلة ترفع عينيها وعقيرتها إلى السماء، يحتضن مؤخرة صحن المسجد مكان الوضوء الذي تميزه كثرة صنابير المياه المعطلة، وكذلك المصطبة الأسمنتية والتي يجثو فوقها طلاب الوضوء للصلاة، دائمًا ما تكون زلقة بسبب المياه التي يسكبونها على أنفسهم مع الوضوء، وكثيرًا ما كانت هذه المصطبة الأسمنتية مسرحًا للهونا ومرحنا وعراكنا مع خادم المسجد الكفيف الذي كان يكره الصبيان، لأننا كنا نستمتع بالعب في المياه ونقذف بها بعضنا بعضًا.

كان لدورات المياه مدخلًا خاصًا، باب خشبي قديم وصغير يقع في أقصى اليسار من البوابة الرئيسية يفضي إلى ممر ضيق يأخذك مباشرة إلى دورات المياه القديمة الغارقة في المياه والمخلفات الآدمية بسبب انسداد أنابيبها معظم الأحيان وعدم الاهتمام بنظافتها بصورة منتظمة، كان هذا المكان أيضًا مسرحًا للهونا وعراكنا مع خادم المسجد الكفيف خفيف الظل -من وجهة نظرنا- فحينما كان يطلب دورة المياه يخبط بعصاه على الباب الخشبي المغلق، فإذا بلغ مسامعه صوت رفيع لصبي بالداخل يقول: «احم» اشتاط غضبًا واهتياجًا واشتعل جنونه

هوسًا وسبًا بأبشع الألفاظ، ويظل يضرب الباب بعصاه بكل قوة يكاد يحطمه، ويستمر في ذلك حتى يخرج الصبي مذعورًا وقد انهارت أساريره من كثرة الضحك بعد عبوره منطقة الخطر مع الخادم، يفر من بين يديه مثلما يفر الفأر من عيون المتربصين لاصطياده بسرعة تاركًا إياه يهذي ويسب في الأولاد العفاريت وأهالي هؤلاء الأولاد ولا يتوقف لسانه العريض عن القذف حتى يدخل دورة المياه ويصفق الباب وراءه بعصبية كبيرة.

أتعجب لماذا اقتحمتني هذه الذكريات الآن، صورة ذلك المسجد القديم، الذي تم هدمه منذ سنوات بواسطة بعض الغرباء الذين أتوا بأموال كثيرة وساعدتهم الوزارة في إقامة بناء أسمنتي قبيح على الطريقة الحديثة عديم النوافذ، وعلقوا على جدرانه عدة مكيفات كهربائية لتبريد الهواء على المصلين، وكذلك صورة ذلك الشيخ الذي كنت أجلس جواره عقب انتهاء كل صلاة أتأمل شيبته ولحيته القطنية ناصعة البياض الشعثة الكبيرة التي تصل إلى ركبتيه، وعينيه الحانيتين وقد ضبطهما في بعض المرات مغرورقتين بالدموع، ذات مرة طفق ينتحب بشدة حتى اعتقدت أنه سوف يموت، أحاط به الناس يطيبون خاطره وسمعتهم يرددون اسمه: «الحاج خليل»، ذهبت أسأل جدتي عنه في حينها، وصفت لها ملامحه وتفاصيل ما جرى في المسجد، كذلك ذكرت لها اسمه الذي ناداه به الناس الذين التفوا حوله، أخبرتني أنه كان من أشهر قطاع الطريق في بلدتنا، زعيم عصابة كبير، مجرد ذكر اسمه يثير الفزع والرعب عند الناس.

»الحكومة ماقدرتش عليه، كان يناطحهم ومش بيخاف منهم، غلبوا معاه، في مرة نصبوا له فخ وقبضوا عليه، قعد في السجن يجي عشر سنين وخرج واحد تاني خالص.«

بعد هذه الواقعة بعدة شهور ماتت جدتي، لكن ظلت كلماتها عن الرجل وصورته داخلي عصية عن التلف في دماغي الذي تراكمت وتزاحمت داخله مليارات الصور والذكريات والكلمات في أثناء سيري الطويل داخل الأيام التي تتبدل كل طلعة شمس.

كل نهار يمنح الخلق دفئًا خاصًّا ومزاجًا يتقلب مع حركتهم وعلاقاتهم ومقدرتهم على الصمود والصبر قبل أن تختبئ الشمس، ويسود الظلام الكون، وتهل على بلدتنا غارات الخوف والقلق والترقب مع نسمات الربيع القادمة عبر رحلة طويلة من السماء تنتشي بها وجوه النسوة وهم يمرون في الشارع يتبخترون بأجسادهن الأنثوية الجميلة فيثيرون حفيظة واشتهاء رواد المقهى البلدي الأشهر في الشارع، أولئك الذين ينفخون الدخان والشيشة وتدور أعينهم ملهوفة مع نرد الطاولة الذي يتقلب في حركات بهلوانية عجيبة تمنح البؤس والحظ والأمل للجالسين المتوثبين لأي حدث مبهج.

يكاد وعاء ذاكرتي ينضب سوى من صورة الشيخ اللص القديم التائب الذي كان ينتحب بشدة، إنها صورة مشحونة في الخلايا العصبية بكهرباء قوية عصية عن الانقطاع أو التفريغ، أو الانتهاء، والمدهش أنها تطاردني الآن بمناسبة وغير مناسبة.

تغيرت الدنيا؛ لصوص هذه الأيام لا يتوبون، يسرقون ويسلبون ويقتلون الناس بدم بارد ولا يبكون، يطلقون لحاهم ويحتلون قرى ومدن، يغتصبون النساء، ويُهَجّرون الناس من منازلهم قسرًا، ولا يترددون في قتلهم بالقنابل والأحزمة الناسفة، وأحدث أنواع رشاشات القتل السريع، لصوص هذه الأيام يقتلون باسمِ الله كل من اختلف مع عقيدتهم أو دينهم، والشيخ اللص الذي كنت أجلس إلى

جواره يبكي ليل نهار داخل المسجد ندمًا على رجل يكون قد أفزعه، أو على منزل يكون قد سلبه عنوة وأرهب أصحابه.

تحول المسجد القديم المكيف الآن إلى مأوى لهؤلاء الشيوخ الجدد، يفرضون فيه شريعتهم، ويعلنون فيه نظرياتهم في الدين وفي الحكم وفي علاقات الناس ببعضها وفي القادم من الأيام، شيخي اللص القديم التائب ما يزال ينتحب في جلسته، أراه جيدًا وأستمع لنحيبه المؤلم، أوصتني جدتي أن أتقرب منه، قالوا أيامها أن الرجل تاب توبةً تملأ سماء البلدة ومحيط البلدان المجاورة نورًا ورحمة، لم أفهم معنى هذه الكلمات جيدًا في حينها.

ما زالت ذاكرتي تضوي بنهار تلك الأيام ورغبتي في البقاء للحظات في المسجد الذي كان قديمًا، ومناكفة الخادم الضرير العصبي صاحب اللسان الشاتم، والإنصات إلى خطبة الشيخ حسن صاحب الوجه الأبيض الحليبي المشرب بحمرة ملفتة على شاكلة أهل الشام، ويتسربل في الزي الأزهري الكامل، العمامة والقفطان والعباءة المهيبة، ولا يتحدث سوى عن ضرورة تراحم الناس مع بعضهم، وكان يؤكد أن اقتراب الناس من الله وحبهم له لا يتحقق سوى باقترابهم من بعض، وحبهم لبعض.

لم يعد ذلك موجودًا على المنبر الجديد مكيف الهواء، كما لم يعد عقلي قادرًا على استيعاب المسجد الجديد ومنبره، وراكب هذا المنبر هذه الأيام.

مات الشيخ خليل اللص التائب وما زلت أدور داخل رحى الأيام الثقيلة، شاخت الخلايا ووهنت العصى التي أتكئ عليها، لكن أجدني أحيانًا مشدودا إلى إلقاء نظرة من الشارع إلى المسجد الذي أصبح مصمتًا، لا يبين من داخله شيء، بابه موصد دائمًا بسبب مكيفات الهواء التي تعمل داخله، لم يعد متصلًا بالشارع مثل الماضي.

ألقي نظرة إلى البناء القاسي، وإلى الزمان الذي أحمله داخل تلافيف وعاء ذاكرتي وأمضى إلى حال سبيلي، ترافقني صورة جدتي وحكاياتها عن الشيخ خليل اللص التائب والنسائم الهادئة لهذا الزمان.

سعاد عادت من السماء

عادت من المدرسة، قالت لأمها:

- لقد صعدت إلى السماء اليوم يا أمي.

سعاد طفلة في الصف الرابع الابتدائي بالمدرسة الحكومية القريبة من المنزل، الوجه الخمري الصغير الجميل بدا شاحبًا متعرقًا، زيُّ المدرسة عليه آثار الشقاوة والتهدل الواضح، انفلتت ابتسامة من الأم وهي تنصرف إلى شواغلها من دون اهتمام أو تعليق.

لحقت سعاد بأمها، أعادت الكلام ثانية:

- لقد صعدت إلى السماء اليوم يا أمي.

ولكن ما تزال أم سعاد تنبش في خزانة الملابس عن القطع التي تحتاج إلى الغسيل ثم انصرفت إلى المطبخ تتابع إجراءات الطبخ، لحقت سعاد بأمها ثالثًا أمام موقد الغاز، وللمرة الثالثة أعادت نفس الكلام لكن بصوت أعلى محتجًا على التجاهل:

- لقد صعدت إلى السماء اليوم يا أمي.

تبرمت الأم، رمت نظرة غاضبة للطفلة الثرثارة، غمغمة سريعة:

- حسنًا، حمدًا لله على السلامة يا حبيبتي، هيا بدلي ملابسك لتتناولي طعامك وتنهي واجباتك.

ولكن سعاد مصرة على أن تحكي، والأم ليس لديها وقت للإصغاء إلى خيالات الأطفال.

حدث قبل ثلاث ساعات بالتمام أن دق جرس المدرسة العتيق الذي أكل الصدأ حوافه يعلن بداية الفسحة، انصرف محروس الفراش في اتجاه باب المدرسة بعد أدائه للمهمة الغبية التي يكلفونه بها عن طريق رنات الهاتف المحمول لأحدهم في مكتب سكرتارية المدرسة، تدافع الأطفال كالمعتاد، دائمًا هناك فرحة، سرعة، تهور، اندفاع بأقصى قوة للخروج من الممر الضيق حيث تنفتح أبواب فصول المدرسة عليه إلى درجات السلم الرخامية ثم إلى الفناء.

بنيان سعاد الهزيل القصير لم يحتمل قوة التدافع من زملائها وزميلاتها، اختل توازنها، حُشرت داخل السلم في رحلة الهبوط وسقطت على الأرض، عشرات الأقدام الصغيرة دهستها من دون دراية ولا رحمة، تركوها وحيدة، ملقاة فوق المربع الرخامي العريض على أحد قلبات زوايا السلم من دون حركة ولا نفس.

المدرسون الهابطون خلف الأطفال انخلعت قلوبهم، منهم من أحاط بالطفلة يتحسس جسدها ونبضها، ومنهم من جرى مذعورًا يخبر ناظر

المدرسة والإسعاف، ومنهم من تسلل خلسة إلى حال سبيله وكأن المسألة لا تعنيه، عشر دقائق بالتمام ماتت فيها سعاد، أو هكذا ظنوا الأمر.

علامات الموت التي يدركها بعض الذين تحلقوا حولها في جزع تم تداولها على السلم أمام جسد سعاد المسجي، أو داخل مكتب الناظر الذي ترك كل ما كان يشغله وطار خلفهم، أمر بسرعة بإبلاغ الإسعاف، تلاعبت الفئران داخل رأسه الصلعاء، فقد توقع أن تنقلب الدنيا فوق رأسه بعد لحظات، قال شهود الواقعة المتوجسون من سيل الاتهامات القادم:

- الطفلة ماتت مدهوسة، عيونها شاخصة، لا يوجد نفس، ولا نبض، أطرافها باردة.

حملها مدرس التربية البدنية بين يديه في خفة، طاف بين حجرات المدرسين بحثًا عن مكان مناسب ترقد فيه مختفية عن أعين التلاميذ، انتهى به الأمر إلى غرفة الناظر، وضعها بأريحية على الكنبة الجلد الكبيرة المواجهة لمكتب الناظر المكلوم المرتبك والمتوجس مما سوف يأتيه من الخارج من مشاكل لاحقًا، الارتباك والقلق يضربان أركان الغرفة التي غصت بالمدرسين والمدرسات، طالب الناظر الجميع بالخروج فورًا عدا وكيلة المدرسة السيدة إمتثال التي أعجزتها الأزمة عن التصرف والنطق، وكذلك المدرس المسئول عن فصلها.

التلاميذ في الفناء ما زالوا يصدرون ضوضاء لا تتناسب مع القلق الجاري في عروق الجميع سواء داخل غرفة الناظر أو خارجها، وكذلك لا تتناسب مع كل هذا القدر من الارتباك الذي يشل تفكيرهم، الدقائق تمر ثقيلة، وحادث الطفلة المسجاة من دون حراك ولا نفس خلق غلالة رهيبة من القلق والتوتر والعجز لا يمكن احتمالها.

أمر الناظر وكيله بسرعة إنهاء الفسحة ودق الجرس إيذانًا باستئناف الدراسة، كذلك أمر أن يذهب كل مدرس إلى فصله في الحال قبل أن تأتي سيارة الاسعاف ويراها الاطفال، أخيرًا بدأت روائح الهدوء والتفكير تلوح بشذاها، انحدرت الأمور بسرعة، عدة دقائق أخرى ثقيلة مضت، تم إخلاء الفناء، أُغلِقت فصول المدرسة على الأطفال ومدرسيهم مع تجنب الاشارة إلى الحادث حسب التعليمات.

حطت سيارة الاسعاف بهدوء ومن دون صوت داخل الفناء، اندفع شابان بسرعة نحو غرفة الناظر بحسب البلاغ، فتحوا الباب، تملكتهم الدهشة والاستهجان، فقد كان الرجل يجلس على كنبته وقد برقت أساريره من الارتياح والفرح، وبجواره وكيلة المدرسة تضحك وقد اتسع فمها إلى آخره، ومدرس الفصل ردت روحه واستعاد حيويته وابتسامته، فقد كانت سعاد تجلس بينهم على الكنبة، ظهرها مستند بأريحية على مسندها، وساقاها مفرودتان إلى منتهاهما حتى الحافة، بدت في وضع اتكاء مريح، وجهها الصغير كان غارقًا في المياه التي سكبوها فوقه لحظة الموت، كانت عيونها تبرق من الدهشة والاستغراب.

تحسس أحد الشابين نبضها، رفع ما بين جفنيها يطالع بؤبؤ العينين، تحدث معها مستفسرًا عن اسمها وأسماء والديها وإخوتها واسم اليوم وتاريخه، وهذا الوقت من النهار، طلب منها السير في الغرفة بحركة بطيئة ثم سريعة، وتحريك ذراعيها وساقيها إلى الأمام وإلى الخلف، أدهشت إجاباتها وحركاتها جميع من كانوا بالغرفة، حاول الناظر تبرير سبب استدعائهم الفوري الملهوف، لم يلتفت الشابان إلى كلام الناظر، فقط انسلا من الغرفة مؤكدين أن الطفلة طبيعية جدًّا، ربما تعرضت لحالة إغماء بسيطة بسبب الأنيميا ونقصان في سكر الدم، أوصوا قبل أن ينصرفوا بضرورة فحصها طبيًا.

أمر الناظر بسرعة إرسال الطفلة إلى فصلها واعتبار كأن شيئًا لم يكن، طلب من المدرسين والموظفين عدم الحديث في هذا الأمر نهائيًا، وقال إنه سوف يتحدث مع ولي أمرها بشأن الفحوص الطبية المطلوبة، هكذا انتهت مسألة سعاد عند هذا الحد، كذلك أمر الناظر المدرسين بضرورة تنفيذ التعليمات الخاصة بتنظيم خروج الأطفال من فصولهم وتطبيقها بدقة لمنع تدافع الاطفال قائلًا:

- الحمد لله سترها ربنا علينا هذه المرة، من يدري ما قد يحدث ايه غدًا؟

خرجت سعاد آمنة من فصلها في نهاية اليوم الدراسي، اختفى كل شيء من رأسها، لم تعد تذكر الحادثة ولا حتى الدروس التي حضرتها.

بعد الظهر وصلت إلى المنزل، اشتعل رأسها فجأة بتفاصيل غريبة لا علاقة لها بحادث السقوط والدهس، بل بأمور أخرى غريبة، كانت ملهوفة لأن تحكي عن هذه الأمور التي حدثت معها، كأنها مدفوعة بقوة داخلية غير قابلة للسيطرة لأن تحكي وتقول، حامت حول أمها عدة مرات، ولكن الأم ليس لديها وقت للغو الاطفال، ولكن أيضًا سعاد مدفوعة بقوة جبرية داخلية لأن تقول:

- أمي، صدقيني، لقد صعدت اليوم إلى السماء ورجعت.

اخبرت أخاها الأكبر العائد توا من كليته، وكذلك أختها الكبيرة العائدة من مدرستها الثانوية، ليس هناك أحد متشوق لأن يجعلها تتم كلامها، طاردتهم وهم يبدلون ثيابهم، وهم يفتحون هواتفهم ينقرونها بأصابعهم، واصلت معهم حتى باب الحمام، لا أحد متشوق إلى سماع تلك الأخيلة.

حل المساء وجاء الأب بوجه متجهم، لم ينتظر حتى يتجمعوا حول طاولة الطعام مثل المعتاد، عينه قلقة حزينة، سأل عنها بمجرد دخوله من باب الشقة، استدعاها على الفور، تفحص هيئتها، احتواها في حضنه بقوة، بغريزتها المدهشة أدركت أنه يعرف كل شيء، أخبرته بوجه يفيض فرحًا وسعادة:

- لقد صعدت اليوم إلى السماء يا أبي.

ابتسم رغم طابع القلق الغالب، أعد لها جلسة مريحة بجواره، عيناه تتفحصان جميع خلاياها، طلب منها أن تخبره كيف حدث ذلك.

قالت بصوت مرتفع:

- وجدتني أطير إلى السماء وكأني أسبح في البحر ولكن إلى فوق، نتف صغيرة وكثيرة من الثلج الأبيض تحيط بي من كل جانب، شعرت كأني أطير داخل فضاء واسع من القطن الأبيض شديد النصع، كل شيء حولي كان جميلًا ورائعًا يا أبي، كنت فرحة، ألعب وأضحك مع الأطفال حولي، كان هناك وجوه لرجال ونساء تنظر نحوى ولكن لا تنطق ولا تنفعل، جامدة، لا تتبين ملامحهم جيدًا، لا أعرف من يكون هؤلاء، ظللت أصعد، لم أنشغل بشيء سوى متعة الصعود وجاذبية الألوان والأضواء، طائر أو حيوان كبير ظهر فجأة أمامي، جناحاه كبيران جدًّا، يضربان الهواء بقوة وينظر نحوى، عيناه كانتا حانيتين وهما تتفرساني، لم يكن له ريش مثل الطيور على الأرض، عندما اقترب مني استدعاني بصوت هادئ وحانٍ، ناداني باسمي، طلب مني أن أصعد فوقه، اكتشفت أن ظهره مخلوق من الجلد ذو لون رمادي غامق مثل جلد البقر، له آذان كبيرة، وأربعة سيقان، وبطن كبيرة، ضخمة مثل عجل البقر، كان هذا الكائن كبير الشبه من البقرة التي تجلب لنا الحليب، لكنه في هيئة طائر يمشي في السماء، ركبته أخيرًا بعد أن كاد أن يحل بي

التعب، مشينا في السماء، كانت هناك شوارع وعربات تجرها الخيول والحمير والبغال، وسيارات ووجوه رجال ونساء من دون ملامح، كانوا يتسكعون، منتشرين في كل الأركان والزوايا، لم يهتم بنا أحد، وجوه جامدة وأجساد بلاستيكية خالية من الحياة والمنطق، وأغبرة دخانية رمادية اللون داكنة تتصاعد وتنتشر على مساحات كبيرة، وألسنة نيران رهيبة تبتلع الأشجار وحقول الذرة ومزارع المانجو، بلغ سمعنا أصوات فرقعات مرعبة مصحوبة بأصوات بشرية مقهورة تستغيث من تلك الطيور الكبيرة ذات أجنحة لا تتحرك وتحلق في السماء، وتلقي حمولات رهيبة من قنابل وذخائر القتل والدمار التي تأكل الأخضر واليابس.

أخبرتني البقرة الطائرة في أثناء التحليق عن ذلك الرجل الذي قتل المرأة بعد أن ضاجعها توًا، لم أفهم هذه العبارة يا أبي، لكن البقرة الطائرة تملكها شعور جسيم بالحسرة والبؤس والتقزز على مشهد الدمار والخراب من تحتنا، قررت أن ترتفع إلى أعلى، غادرت طبقة السماء الأولى إلى الثانية، كنت مذهولة من الأضواء المتداخلة والألوان التي تشيع انقباضًا في النفس، الفضاء متسع لكنه حزين، تعجبت من كل هذا الهدوء والموسيقى التي تجلب الشجن والدموع، وقرص الشمس الذي استحال فجأة إلى وجه بشري دائري جميل، أعرفه يا أبي، إنه وجه خالي، كان يبتسم مثل عادته كلما رآني قبل أن يتركنا

ويأخذه الموت فجأة، كان يغمرني بالحلوى والشوكولاتة وأكياس الشيبسي كلما هللت عليه، كان عطوفًا وحنونًا، فرح عندما رآني، غمرني بالقبلات، طالبني أن أحترس على نفسي، وهكذا أوصى البقرة الطائرة أن تحميني من الأشرار، لم أفهم ذلك أيضًا يا أبي، هل يوجد أشرار في السماء؟

رغبت في المكوث بجانبه فترة أطول، هزت البقرة الطائرة رأسها بغضب وطارت إلى أعلى.

اخترقنا طبقات السماء الواحدة تلو الأخرى، كنت أستمع إلى عزف موسيقى قادم من أركان الفضاء، وأحيانًا أستشعر الموسيقى وكأنها مبعوثة من داخل جسدي الذي يسبح من دون تعب، رحلة رائعة يا أبي، لم أستمتع برحلة مثلها من قبل، ليتك كنت معي، أعدك وأعد أمي أن أصحبكما معي في الرحلة القادمة، ربما تكون قريبة.

في الطبقة التالية من السماء كان هناك رجل يطلي وجهه باللون الأحمر والأبيض والاسود، ويلبس بذلة حمراء ويضع طرطورًا فوق رأسه، مثل بهلوان السيرك القومي الذي رأيناه العام الماضي، كان يرقص بخفة، يتمايل مثل راقصات التلفاز، يخرج لسانه للجموع التي كانت تحيط به، وبرغم أن الغضب كان يفضح عيونهم وحركاتهم لكنه كان مستمتعًا بكل ما يفعله

من حركات وما يقوله من نكات سخيفة، سألت البقرة الطائرة عنه، غمغمت وقلبت وجهها مستاءة ومشفقة على المتحلقين حوله، ثم طارت في السماء تبحث عن طبقة أخرى كانت تقطنها امرأة شابة فائقة الحسن والجمال، استدارت نحوي، ابتسمت لي ابتسامة جافة، منزوعة الحياة، احتوتني بذراعيها، شرعت في سحبي من فوق بقرتي الطائرة وإخفائي في حضنها، لم أتردد في الصراخ، كانت عبارة عن عروس مصنوعة من البلاستيك والألوان البراقة، لكنها كانت مصرة على نزعي من فوق بقرتي وتردد:

»أنا أمك يا سعاد، أنا أمك يا سعاد.«

الصرخات المتتالية انفلتت مني رغمًا عن إرادتي، إنها لا تشبه أمي يا أبي، إنها امرأة كانت تريد اختطافي، أركان السماء امتلأت بصراخي، المكان كله اصطخب بصراخي المتتالي خوفًا من تلك المرأة التي تريد اختطافي، هل يمكن أن يختطفوني من حضن أمي يا أبي؟

ابتعدت البقرة الطائرة بي، حلقت إلى أعلى، كنت خائفة، مرتعبة، بمجرد أن ابتعدنا استعدت هدوئي، ابتعدت البقرة في السماء أكثر، طالعنا حشود كبيرة من الخلق يتحلقون في دائرة كبيرة حول شاب بشرته بيضاء، مهندم في بذلة أنيقة بلون

السماء وشارب مقوس خفيف، منتوف شعر الوجه والجبهة، يقف على طاولة خشبية صغيرة، أصابعه تعبث بكروت اللعب (الكوتشينة) تقليبًا وترتيبًا، يرسم ابتسامة خفيفة للجموع ثم يأخذ نقودهم ويضعها في جيبه، تطلع نحوي بابتسامته الباهتة، طلب مني المكوث بجواره ومساعدته وسوف يغدق عليّ بالمال، انقبض قلبي من إيماءاته، إشاراته، وابتسامته الميتة، حركات أصابعه على ورق الكوتشينة، وحشود الناس الطيبين الذين كانوا مستغرقين معه وفي حركاته وضحكته الغامضة، طلبت من البقرة أن نغادر هذا المكان على الفور، فقلبي لا يستطيع تحمل النظر إلى هذا الشاب المحتال.

طارت البقرة في الحال، اخترقت طبقة أخرى من السماء، لمحت من أعلى مساحة كبيرة مصبوغة باللون الأسود، طالعتني البقرة في استغراب، لم تنتظر طلبي منها بالاقتراب، توجهنا نحوهم، ملايين من النسوة متشحات بالسواد، عيونهم غاضبة، قلوبهم مفطورة بالحزن وخيبة الأمل، رأيت الفقر ينضح من خلاياهم وأسمالهم، يرددون كلمة واحدة هي: «خدعنا هذا الرجل، خدعنا هذا الرجل»، لم أفهم ذلك يا أبي، من هو هذا الرجل المخادع؟

لم تهتم بقرتي بالشرح، يبدو أنها كانت قد تعبت، صوت النسوة الغاضبات كان يزلزل المكان رغم عجزهم وقلة حيلتهم البادية

في حشدهم الضخم، طلبت من بقرتي أن نتريث قليلًا ريثما نتعرف على الموضوع، لم تهتم، تحركت بسرعة بعيدًا عن تلك البقعة السوداء، ثم أخبرتني عن نهاية الرحلة وضرورة عودتنا حالًا إلى الأرض.

في رحلة العودة سمعت صوتًا غامضًا يخبرني أنه سوف تكون هناك رحلة أخرى، وأننا سوف نكون معًا، من الآن سوف أجتهد في دروسي وأكون الأولى على المدرسة لأحصل على هذه الرحلة مرة أخرى.

صَمَتَ الرجل قليلًا قبل أن يحتويها في حضنه ويضمها بقوة.

صُمْتُ الأم التام أشاع حالة من التوتر والقلق استغرقت المكان، سعاد تجلس وسطهم مثل ملكة تملك رحلة سحرية وحالة مدهشة من التشويق والجاذبية امتلكت بها عقول والديها، فذلك حادث يندر تكراره، إنها الآن مصدر الكلام والحكايات الغريبة، المرأة الأم ألجمتها الدهشة، سقطت فجأة في بئر من الحوادث غير المفهومة وغير المعقولة ولا المطمئنة، لم تستطع أن تنطق، انتظرت أن ينطق الرجل الذي حضر توًا بذلك الوجه المتجهم وتلك الحالة من الخوف والارتباك، ولكن لم ينطق الرجل، طفق يمسح بأصابعه شعر سعاد ووجنتيها، وتتسع ابتسامته كلما ضحكت الطفلة، القلق والاضطراب يغمرانه بقوة، أخبرها بعفوية أنها لن تستطيع الذهاب إلى تلك المدرسة منذ

الغد، سوف يحول أوراقها إلى مدرسة أخرى مستواها أفضل حتى تتمكن من أن تحرز المركز الأول، احتجت سعاد بقوة، فهي لا تريد أن تترك زملاءها، حاولت الزوجة الاستفهام بعد أن استشعرت الخطر، فطلب من سعاد الانصراف والاستعداد للذهاب إلى المدرسة الأخرى حتى يتسنى لها الذهاب في رحلة سماوية أخرى، في هذه اللحظة هدأت سعاد وغادرت الغرفة في هدوء.

أدركت الأم أن مكروهًا جسيمًا حدث، أخبرها الرجل عن الاتصال الهاتفي الذي تلقاه من صديقه قبل قليل يستفسر فيه عن حالة سعاد بعد أن تم دهسها في المدرسة بواسطة التلاميذ وفقدت الوعي وأشاعوا أنها ماتت، هكذا أخبره ولده عمرو زميل سعاد في المدرسة ويدرس في الصف السادس الابتدائي.

لحظة

كل شيء كان يسير على ما يرام، أمور البيت، الأولاد، العمل ومشاكله العادية، علاقته السرية بصديقته، حيويته ونشاطه الجسدي، كل شيء كان طبيعيًّا ولافتًا لأنظار جميع المتعاملين معه، باختصار «كله في العادي» مثلما يقولون، لكن الذي حدث بالأمس كان فارقًا ومدهشًا.

خرج مثل المعتاد في المساء لممارسة تمرين المشي شبه اليومي على طريق جانبي بالقرب من البيت، المسافة بين بيته وطريق المشي تسمح له بالترجل وكان يحب ذلك، انتشل سلسلة مفاتيحه من فوق «الكومودينو»، دسها في جيبه وكذلك هاتفه المحمول، استثقل دس حافظته المحشوة بأوراقه الشخصية والنقود في جيب بنطاله، تركها ومضى سريعًا ليركب الطريق الأسفلتي الجانبي شبه المظلم ويبدأ تمرينه المعتاد.

الظلام يتعمق، حركة الأقدام المترجلة تكاد تختفي من حوله، لم يعد هناك أصوات أو أشباح بشرية يمكن رؤيتها من بعيد، أنفاسه تتلاحق مثل قطار سريع يمضي من دون سيطرة، توقف في مكانه، إضاءة أعمدة الإنارة الباهتة بدأت تتراقص ثم تأفل في عينيه المرهقتين، الأرض من تحته ترتعش بشدة، كل شيء يطوف حواليه، وخزة الصدر القوية القصيرة، والسقوط جوار الرصيف تزامنًا معًا بطريقة مدهشة في لحظة سرق فيها الزمن قدرة صاحبنا على الصمود.

في الصباح المبكر التالي عثر عمال النظافة على جثة لرجل بدين راقدًا على ظهره، مادًّا ذراعيه إلى

منتهاهما، وعيناه تطالعان السماء في استسلام، لم يعثر العمال في ملابسه على أوراق تحقيق الهوية، ولم يتعرف عليه أحد من المارة.

بعد عدة أيام نشرت الصحف ومواقع التواصل الاجتماعي صورًا ومناشدات للبحث عن رجل مفقود ومطالبات بعودته إلى أسرته وأطفاله المكلومين.

احتيال

قالت الجميلة لصاحبتها الجميلة:

- لم أعد أحتمل غموضه ومراوغاته ومناوراته.

صاحبتها الجميلة لم تبدِ اندهاشًا، طالعت الشارع، قطرات العرق التي تنز من جبينها المهموم المتعب، خيوط الزمن تمضي من دون تحفظ لتنسج شبكة من الكآبة والأخاديد الدقيقة على جبين ورقبتي الصديقتين الجميلتين.

استدارت الجميلة في اتجاه الشارع توقف سيارة أجرة، صاحبتها الجميلة أخرجت منديلًا ورقيًا تجفف عرق الجبين والرقبة، أرسلت ابتسامة إلى الشارع الغارق في الفوضى والأشباح المتجهمة المحتالة، الجميلة التي قررت قتل علاقتها بالرجل الغامض ما زالت حائرة، مترددة، إشاراتها إلى الطريق وسائقي الأجرة لم تُجدِ نفعًا، ما زال عرقها ينز سخونة واضطرابًا وقلقًا، ظهر من بعيد شبح الرجل الغامض المراوغ يشير بالتحية إلى صاحبتها الجميلة المبتسمة التي تعلم جيًدا أين تنظر، ولمن تبتسم.

اختباء

الآن فقط نجح في لفت انتباه العالم من حوله؛ مات.

عثر عليه صبي في الغرفة الفقيرة الضيقة التي يقطنها، كان مستلقيا وسط كومة هائلة من القمامة والخرق القديمة البالية وأدوات الطبخ الصدئة، ليس هذا كل شيء بالطبع، هناك تفاصيل يتحتم سردها لاستجلاء الواقعة والخروج ببيان للعالم يعلن وفاة الرجل الذي لم يره أو يشعر به أحد طوال حياته، اعتاد السير بجوار الجدار وأحيانا داخله، لم يترك من أثر وذكرى سوى مشيته العرجاء داخل الشارع متوجها أو عائدًا من عمله الغامض، وتلك الابتسامة المبهجة التي تغرق وجهه وتشي لكل من يلتقيه أن الدنيا بخير. الصبي الذي عاين الواقعة اعتاد الانحراف إلى غرفته كل صباح قبل ذهابه إلى عمله، يطرق بابها الخشبي القديم شبه المفتوح، المفتت الأوصال من فرط التشيخ، يأنس بصوت صرير الباب المزعج كأنه مطرقة تُدق على الرأس، يواجه عمه الذي تمدد على الأرض بين مخلفات الغرفة التي لا تزيد مساحتها عن متر في متر ونصف، هذه المساحة كانت عبارة عن منور متنفس وحيد لنوافذ المنزل المخنوق المتهالك يدخل منها الضوء والشمس أحيانا. اكتشف إخوانه ورثة البيت وملاكه أن قامته تبتعد عن الأرض أقل من متر ونصف، وحجمه صغير لكن مدبلك أو نصف بدين، لذلك اعتبروا المنور نصيبه من ميراث ابيهم في البيت ويصلح غرفة مناسبة يأوي إليها آخر الليل، حيث يرمي جسده على أرضيته حتى الصباح.

الصبي المترقب يحتضن العيون الضيقة للرجل الغطيط والتي قد فُتحت بفعل صرير الباب الذي يضرب الشارع كله بالإزعاج، يرميه بالصباح الطياري قبل أن يعيد الباب إلى وضعه السابق ويتباعد وقع دبيب أقدامه في الشارع.

هذا الصباح اختلف، لم تكن هناك فنجنة عيون، ولا حشرجة أنفاس، بل سكون تام مهيب أرعب الصبي، اقتحم باب الغرفة، طفق يقلب في الجسد المسجي، يردد من دون وعي «عمي، عمي، عمي»، لكن لا حياة لمن تنادي، الصبي المكلوم هو الوحيد في هذا العالم الذي كان يصاحبه ويتحدث معه أحيانا، اندفع بسرعة يخبر أباه وجميع من في البيت، استيقظ الناس في الشارع على جلبة حادث الوفاة وأصوات النشيج المكتومة.

في الجنازة سار خلق كثيرون، حضروا من أماكن كثيرة ومسافات بعيدة، وكان النعش محمولا على أكتاف أناسٍ لم يتحدثوا معه بكلمة واحدة في أثناء حياته، وإخوانه خلف النعش يذرفون دموعا باردة ولديهم مشاريع لاستثمار غرفته التي مات فيها.

اكتشف نفر من السائرين في الجنازة المهيبة أن هذا المشهد التاريخي يعتبر المرة الوحيدة التي نجح فيها «المرحوم» في لفت انتباه العالم إليه بعد حياة حافلة في عالم الظلام والنسيان، مكتفيا ببضعة كلمات يدفعها لمن يلتقيهم في الطريق على سبيل التحية، وفيض من الابتسامات يوزعه في الشارع وبين زملائه في العمل من دون هدف أو معنى سوى أنها تبرق من داخله البسيط الطيب الذي لا يعرف الحسابات ولا الطموح ولا المستقبل ولا الصراع، بل يعلم كيف يتنفس، وكيف يتصالح مع نفسه وعالمه الذي كان يتعمد دائما الاختباء داخله حتى لا يلحظه أحد.

رحلة السيد العجوز

حركته في شوارع القاهرة لم تعد مثل الماضي، ثقلت، وهنت، عاتقه مثقل بكل ما يحمله على كتفيه من أيام وصراعات وأحداث وأحلام وأمنيات تبخرت كما يتبخر الماء المغلي في القدور، أمراض تتآمر على ركبتيه وظهره وعموده الفقري ومعدته، وهنت عضلة القلب، قدرتها وحركتها تباطأت في ضخ الدماء إلى أوصاله، أنذرته عدة مرات بكوارث لكن الله سلم، انتثرت أخاديد الزمن في خلايا وجهه ورقبته وذراعيه، ضرب الشيب في كل مكان يمكن أن يصل إليه في تفاصيل هيئته التي يصر دوما على الخروج بها إلى الناس.

أحلام شبابية عظيمة حملته على أجنحتها في عشرينياته، طارت به نحو تغيير العالم والتاريخ، لكنها في النهاية تقزمت لدرجة الانقراض، الآن لم يعد يتبقى له من شيء سوى عصى يحجل بها فوق أيامه المتبقية، وابتسامة عريضة مريحة يصدرها للعالم، ابتسامة تكشف بوضوح عن حالة فسيحة من الرضا والتصالح، والانفصال عن عالم الصراع والتشاحن والجدل، لم يعد يملك من عالمه سوى بضعة أنفاس مريحة يحمد ربه عليها، وراديو «ترانسنوستر» مثبت على موجة وحيدة يتيمة وهي موجة إذاعة القرآن الكريم، يظل رحيقها يملأ غرفته البسيطة، يستدفئ وينتشي بتلاوة القرآن طوال يومه دون انقطاع، كذلك بقي له تلك الرحلة التي اعتاد على خوضها مرة وأحيانا مرتين كل أسبوع يطالع فيها شوارع القاهرة، ومتاجرها وناسها وأحاديث الناس، اعتاد أن يحجل متكئا على عصاه إلى موقف الحافلات العامة المجاور لمنزله في هدوء وصمت بالغين، وحرص تام على عدم السقوط في الطريق الأسفلتي المترب المرصع بالحفر والمرتفعات العشوائية المفخخة التي يترصع بها الطريق، ثم يلقى نفسه داخل أحد مقاعد الحافلة العامة بجوار النافذة الزجاجية، يترك حواسه لتعليقات الناس، ومعرفة آخر الأخبار،

ومطالعة الشوارع والأحوال والمتاجر، كل ذلك من خلال زجاج الحافلة في رحلة الذهاب من موقف الحافلات بالقرب من منزله، إلى موقف الحافلات في الجانب الآخر، ثم يظل جالسا في مقعده لا يحرك ساكنا في انتظار رحلة عودة الحافلة إلى الموقف الأول لكي يترجل حجلا إلى المنزل.

أصبحت تقاطيع وجهه الكمثري المضمخ بحمرة الجلد المحروق المجعد الذي يكشف عن آثار الزمن التأديبية في خلاياه مألوفة لدى الناس في الطريق، وكذلك بدت تلك النظارة الطبية ذات الزجاج السميك الذي يطلقون عليه «كعب الكوباية» والمعلقة بعناية على وجهه ومقفوشة على صيوان أذنيه المفرطحين، والمثبتة بارتياح على أرنبة أنفه الغليظة علامة واشية على حضوره المميز وهيبته وأناقته البسيطة، بالإضافة إلى التقوس البارز على ظهره والمنسجم مع حركته البطيئة الحجلى في الطريق، أصبح كل ذلك يمثل بالنسبة له علامات وأُلفة وود مميز له لدى غالبية السائقين ومحصلي التذاكر وكثير من الوجوه التي تستخدم هذا الخط من الحافلات في ذلك التوقيت من النهار.

بعد صلاة الظهر مباشرة يظهر هذا السيد العجوز صاحب الشعر القطني الناعم، الذي أهمل تهذيبه وقصه لدرجة تطاير خصلاته متحررة تراقص الهواء وتمنح وجهه الأبيض المريح زخما هائلًا من الوسامة والاهتمام بالنفس، اعتاد أن يظهر في هذا العالم وتلك البقعة من الأرض، يمضي في الشارع المتخم بالفوضى والعشوائية والوجوه القبيحة التي تصاحبه خلال رحلته الأسبوعية المعتادة، يمضي في طريقه مصطحبًا عصاه وعباءته السمنية الخفيفة فوق الجلباب الأبيض ومصطحبا أيضًا معه أعوامًا ثمانين يسير في ظلها، متحررا من كافة القيود والعراقيل التي تحول كل تلك الأشباح التي تترجل حواليه إلى كائنات ممسوحة الملامح، غاضبة دائما وليس لديها يقين، الأولاد كبروا، تزوجوا، غابوا في مشاكلهم وقيودهم، لم يعد يكترث كثيرا بحضورهم المؤقت والأحفاد في حياته

الحالية، اعتاد زياراتهم الروتينية الباردة، يمنحهم وأطفالهم كل الذي يملكه مع كل زيارة، يأخذ بضعة دقائق أو حتى ساعات يتمرغ فيها الأحفاد في حضنه وكفى، غادرته امرأته فجأة ومن دون سابق إنذار ذات نهار صعب في أحد أيام الصيف منذ أكثر من عشرين عامًا، كان في العمل في هذا الوقت، هاتفه جهاد أصغر الأبناء حينئذ، كان يصرخ هلعا:

- بابا، ماما وقعت في المطبخ، مش بتتحرك خالص، مافيش حد في البيت.

انخلع قلبه، طار إلى المنزل، المكان مخنوق بالرعب والقلق والناس الذين هرعوا للمساعدة، كانت مسجية على ظهرها بجوار موقد الغاز، الهدوء والراحة بادية على ملامح بشرتها البيضاء المبتسمة، حملوها إلى المستشفى القريب، لم تفلح ضربات القلب الهلعة من تغيير النتيجة والقدر، أبلغه الطبيب الشاب الذي أوحت ملامحه عن مبلغ كبير من التأثر قبل أن يختفي من أمامه سريعا:

- المدام متوفاة منذ أكثر من ساعتين، واضح أنه هبوط مفاجئ وحاد في الدورة الدموية، شد حيلك.

رياح تلك الذكرى عندما تزوره تعرقل من حركته وتطفئ وجدانه وعيونه، هذا الذي حصل اليوم في أثناء اختراق الحافلة شوارع القاهرة، وانتشار الجلبة والضوضاء حوله، رياح الذكرى السوداء منعته من التحديق كالمعتاد في الشوارع والناس، بدت الشوارع والأرصفة أمام عينيه كأنها خلت من الناس ومن الحياة، بل إن الحافلة ذاتها التي يركبها كأنها لا تتحرك، استسلم لقدره الذي اعتاد عليه ترك نفسه تسبح في ملكوت الأيام الغائمة، وعطرها الذي يحتويه، هذا هو الشيء الذي بقيَ له في هذا العالم مع عصاه، وذلك الراديو «الترانسيوستر» القديم وصوت إذاعة القرآن الكريم، توقفت الحافلة في الميدان الفسيح، نزل جميع الركاب سواه، صعد آخرون، تغيرت وجوه الناس وأسمالهم وأصواتهم، ملامح الباعة

الجائلين اختلفت واختلف معها بضاعتهم الرخيصة ونداءاتهم لجذب الركاب للشراء، بقيت فقط رائحة العرق لم تتغير رغم اختلاف الأجساد، كأن الحركة في الميدان والضوضاء المنبعثة من عشوائية السلوك وعدم انضباط الحركة والناس تمنح زخمًا للحياة من نوع مميز جدًّا، كأنها تبعث في الأرواح التي قبضتها الذكريات والأيام السوداء قبلة حياة جديدة لكي تستعيد ألقها وطبيعتها، كأن ذلك هو ما حدث بالضبط للسيد العجوز سجين المقعد داخل الحافلة العامة، الرجل استفاق على صوت الجلبة وحوارات الناس مع أنفسهم وفي هواتفهم النقالة بصوت مرتفع، ونداء محصل التذاكر له بصوت مرتفع معتقدًا أن سمعه ضعيف «تذاكر»، خرج من غفوته، اعتدل في جلسته مفسحًا مكانًا أوسع للشاب الصغير المنكمش بجواره، دارت السيارة في رحلة العودة، تعلقت معها ابتسامة العجوز المريحة المعتادة، انتفضت خلاياه بتلك الفرحة الداخلية التي تفجرها هذه الابتسامة الرائعة التي تكسو وجهه الرائق، وهدوءه اللافت الذي يكشف عن طبيعة هائلة في السيطرة والتسامي، والارتقاء بعيدا عن ترهات البشر الطبيعيين، الحافلة تمخر عباب الشوارع والصراخ وسباب الناس لبعضهم والوقت الذي يمضي من دون طائل في شوارع ضاقت بكل شيء، لم يعد فيها خرم إبرة، وعرق كثير مسكوب يحتج بقوة على ذلك النهار الصيفي الذي يحتفي بقهر الناس وغليهم داخل قدوره الرهيبة، تثبت بصر العجوز على زجاج الشباك المنفرج قليلًا يطالع في رحلة العودة كل شيء، يتأمل كل شيء، يقول لنفسه في وداعة لافتة «لقد تغير الزمن، وتغير الناس وتغيرت الأماكن والأحداث لكني لم اتغير»، التفتُّ إلى الشاب الصغير المنكمش جواره سأله عن الساعة، أصابع الشاب كانت تعبث في الهاتف النقال وعيون مخزوقة في شاشته المضيئة، أخبره بسرعة وبغير اكتراث أو انفعال «الساعة أربعة ونص يا جدي.«

تطلع إلى وجهه في هدوء وامتنان، صدرت عنه شهقة مريحة تنم عن فرحة وانتصار، قال لنفسه: «الحمد لله هالحق صلاة العصر، لسه بدري على المغرب.«

طريق الحافلة متعسر، الزمن ينفلت، حالة الرضا التي تتملك العجوز تتسع أكثر فأكثر، تكاد ترفع الحافلة على جناحيها وتطير بها حيث شقته القديمة التي تهالكت جدرانها وأثاثها، وكذلك وحدته القديمة، والراديو القديم، وصوت المقرئ الندي المنبعث من إذاعة القرآن الكريم ولا شيء غير ذلك.

القيامة

رأيت القيامة، غبشة الليل كانت طاغية، قلبي يراقصه الخوف، ازدحمت الأرض بالفارين من القدر، عيون بلهاء تضرب في كل صوب، أقدام مرتعشة تصدر دبيبًا، النار تحاصر الجميع، ألسنتها نزقة، فاتحة شهيتها للابتلاع، مخارج النجاة غلقت بالكامل، سوى باب وحيد كان وزبانيته يقفون قبالته، ملامحهم كملامح الديناصورات الأسطورية المجنحة، أسمالهم سوداء سواد ليلة حالكة الظلمة، أنيابهم صفراء متآكلة متأهبة للالتهام والتمزيق، كانوا يصطفون أمام فتحة الباب يحملون أسلحة ولافتات ضخمة معلقة في الزوايا، منها ما هو مصنوع من البلاستيك، ومنها ما هو تقليدي مصنوع من قماش التيل، مخطوط عليها نحو ربع الألف من العبارات البراقة ذات الخط المنمنم الباهت غير القابل للرؤية أو حتى الملاحظة.

الرجل صاحب الوجه المخروطي الغاضب شذرت عيناه الحمراوان في جميع اتجاهات الجموع، خلفت خيوطا قوية من اللهب تتلبس جيادهم مثل قلادة ذهبية خرجت توًا من مقابر القدماء، صياح الديك المعتاد في مثل هذا الوقت أطاح بالمشهد من أمام عيني ومن ذاكرتي، خرجت إلى الشارع في هذا الوقت المبكر جدًّا، كان المسجد في مكانه وهدوء حركة نفر المصلين القليل كان على حاله أيضًا، في طريق العودة أحاطتني لدغات البرد الأبريلية بحالة من الفوضى والارتباك، سارعت الخطى لكي أتدثر ببيتي القديم الآئل إلى السقوط، هناك على ناصية الشارع المرتجف، الصامت عاينت القيامة ثانية، هذه المرة كان هناك أشباح

تزمجر، وسلاسل حديدية ضخمة مربوطة في أقدام رجال ونساء عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، وهول كبير، وكنت مستيقظا جدًّا، ومتحمسا جدًّا للقاء الديناصور المجنح الذي استرجعته ذاكرتي في مشهد القيامة قبل لحظات من دخولي منزلي القديم، واوصد الباب ورائي بقوة.

حصاد

صالة البنك الفارهة مفعمة بحركة الزبائن والموظفين، يرن في ردهاتها صوت موسيقي مصحوبًا بنداء نسائي مميز صادر عن ماكينة إلكترونية لتنبيه الزبائن إلى دورهم في الخدمة، المقاعد كلها مشغولة سوى مقعد واحد فقط التف حوله رجل وامرأة، من خلال الخيوط المحفورة على وجهيهما ومقدار الضمور الحاصل في عضلات الرقبة تستطيع أن تتبين أنهما في أواخر عقدهما السادس أو يزيد، الرجل مظهره أكبر نسبيًا، حركته ثقيلة، زجاج نظارته الطبية المعلقة فوق عينيه لم يتمكن من حبس الجهامة التي كست وجهه، وبطء إيقاعه في الحديث، أشار بذراعه المتيبس إلى المرأة المصاحبة له لكي تجلس، استندت إلى ذراعه النحيل الذي خلا من اللحم والعضل، اتخذت جلستها على الكرسي المريح، ملأت رئتيها بهواء التكييف البارد، الشاب الأسمر الذي جوارها نطر نفسه بسرعة، أصر أن يجلس العجوز المصاحب بجوارها مكانه، رمقة امتنان باهتة قفزت من عين العجوز المتبرم المتجهم، اصطدمت بالشاب الذي أخرج نفسه من دائرة مقاعد الجلوس، الهمس يتبادل بين العجوزين، وكذلك الإشارات والتلميحات، منظر الشحوب وكرمشة تقاطيعهما يوحي كأنهما خارجين توًّا من المقبرة، الجميع يترقب صوت التنبيه الموسيقي ويعقبه صوت المرأة والأرقام التي تتبدل على الشاشة الإلكترونية. العجوز يرقب كل شيء متلبسا الهدوء والاحتجاج الداخلي، بدا قلقًا غير مرتاح، يفرد ورقة الرقم الذي يحدد دوره في الخدمة ويطالعها ثم يثبت بصره على الشاشة الرقمية أمامه، ما زال هناك الكثيرين قبله، هكذا يهمس في أذنها بهدوء، أنامله اليابسة تداعب ورقة كبيرة بين يديه، صك من شهادات البنك بمبلغ مالي كبير، يفردها ويهمس في صدر امرأته التي بدت أكثر هدوءًا وراحة، يدرك أنه يحمل بين أنامله النحيلة الناشفة حصاد أربعين عامًا قضاها من عمره

متنقلًا بين بلاد الله في صحاري النفط البعيدة، مهندسًا بترول في حقول النفط كان رسمه ومهنته، صاحبته في أيامه أحوال وتبدلات وتقلبات ووجوه مضطربة وخائنة وامرأة التقاها في وحشة الأيام وظلامها بعد مرور عامين فقط في الصحراء، الورقة التي تعبث بها أطراف أصابعه على مرأى من الجالسين جواره تحتوي على صافي نصيبه وزوجته من رحلة الأربعين عامًا في الصحراء، كانوا قد وزعوا النقود فيما بينهم وبين الأولاد، الذين انصرفوا إلى إدارة حياتهم بطريقتهم الخاصة وانشغلوا يكافحون دنياهم وأرزاقهم، رحلة الأربعين عامًا في صحاري النفط كأنها تتراقص الآن أمام عيني العجوز، تتكشف بجلاء على ملامحه الباهتة مع كل صوت يخترق فضاء الصالة لموسيقى التنبيه، وصوت المرأة، ومع تغيير رقم الشاشة الإلكترونية، وأنفاس الناس الذين اكتظت بهم الصالة، كأنهم في يوم انتظار الحساب، المرأة التي كانت هادئة منذ قليل تحول وجهها إلى العبوس والضيق مع مرور الدقائق، والانتظار وهمسات صاحبها الذي لم يتوقف عن التحديق في الورقة الكبيرة التي تحتويها يداه، أحاديث الناس الجانبية لا يمكن أن توقف آلة العد والحساب، كما أن الانشغال بالعمل والسخرة والطواف بين أطراف الصحراء لا يمكن أن يوقف آلة الزمن، الخطوط المحفورة الغائرة على الجبينين وحول العنق، والعيون التي ضمرت، والعروق التي تكلست وأنهكت عضلة القلب كل ذلك كان موجودا في تلك اللحظة وشاهدًا على أن هناك زمن طويل قد انقضى، وأن أولئك الموجودين الآن في الصالة الفسيحة المكيفة الهواء ويترقبون نداء الآلة، وإنهاء مصالحهم يشهدون أن هذا العجوز وامرأته يجلسون بينهم، ويترقبون الدور والمثول أمام موظف خدمة العملاء داخل البنك الشهير، الرجل تشغله الحيرة والترقب، لا يستطيع رؤية مقدار الشيب الذي كسا خصلات شعره التي ما زالت ثابتة الجذور مثله، على الرغم من تحولها جميعًا إلى البياض الناصع مثل نتق القطن، كل ما يشغل تفكيره هو ذلك الصك المالي الذي في يده، ويثمن بعشرات الآلاف، حصاد عشرات الآلاف من أيامه الطويلة القلقة، وغياب

طويل عن تاريخه ويفوعته وأحبابه، وأنفاس الأصدقاء، والشوارع والأزقة التي امتزجت بصباه، وشبابه الثائر القلق، وحتى أعدائه ملح أيامه ومصدر طاقته، الصك المالي يهتز بين أصابعه كأنما داهمتها لحظة رعاش مفاجأة، فكرة طفيلية اقتحمت دماغ السيدة العجوز التي لم تعد تخجل من بروز خصلات شعر المشيب البيضاء الهاربة من تحت غطاء الشعر التي وضعته فوق رأسها من دون عناية، أخبرته عن رغبتها في تجديد الشهادة وجني الفوائد لمدة ثلاثة سنوات قادمة، فذلك يضمن لهم استقرار المدخول المادي لمدة ثلاثة سنوات أخرى من الأمان في أعقاب اشتعال أسعار الدواء والطعام، الاتفاق السابق كان على التجديد لمدة عام واحد فقط وجني مدخول مادي أكبر يعينهم على الحياة، كان يقول: «لا أحد يضمن العمر المتبقي»، هكذا كان الأمر، مع تواتر الدقائق وأصوات موسيقى التنبيه، وتبدل الأرقام على اللوحة، وتغير مقاعد ووجوه الناس في صالة الانتظار، تبدل التفكير، أصرت السيدة أن يتم تبديل الصك بثلاثة سنوات إضافية مع فائدة أقل لكن بضمان استمرار المدخول ثلاث سنوات أخرى، الرجل ذكرها بما سبق الاتفاق عليه في المنزل، وأنه لم يعد في العمر بقية تكفي، رمقته بغضب، بدأ صوتهما الهامس يرتفع، أدرك الجميع أن خلافًا حادًّا نشب بين العجوزين، تحولت المرأة إلى مخلوق آخر، حاد، شرس، من المستحيل إيقافه، بدت كأنها تستعيد زمانها وقوتها أيام الترحال الطويلة والطواف على بلاد الله وخلق الله، بدت في تلك اللحظة بملامح مختلفة، مليحة الوجه، البشرة السمراء تخطف الأبصار والقلوب، ممشوقة القد والقوام، مهيبة، اضطرته هيمنتها الأنثوية إلى الزواج بها في بلاد الغربة في ظرف عامين فقط من بدايات ترحاله، الآن عادت تعاند الوجه المُجعد، والنظارة الطبية السميكة الرخيصة، وخصلات شعرها البيضاء المتسللة وقد تحولت إلى اللون الأسود الفاحم، الرجل المتجهم الذي أسلم ظهره المقوس إلى مسند الكرسي بعد المعركة اللسانية لا يلوي على شيء، انتبه أخيرًا إلى صوت التنبيه الموسيقي وتبعه صوت المرأة الجميلة يردد نفس الرقم الذي علق بأصابعه

في الورقة الصغيرة، انتصب على حيله بصعوبة، استندت إليه رفيقته الجميلة، غادرا منطقة الانتظار في اتجاه موظف شاب، لامع الوجه والبشرة، وسيم، حليق الذقن والشارب، كان يرتدي الزي الرسمي الأنيق الخاص بالبنك وابتسامة مرحبة عثر فيها العجوز على شبابه كاملًا.

سيدي

موجة حنين عاتية استغرقتني بمجرد أن التقطت عيناي خبر وجوده ضمن الخبراء المتحدثين في المؤتمر الثقافي الكبير الذي سيُعقد في القاعة الرئيسية للجامعة، فرصة عمري التي انتظرها لكي التقيه وجهًا لوجه، أقبلُ يده وألثمها، بينما عيناي تتأملان تفاصيل هذا الكيان المهيب في شغف منفلت، حالة مميزة وفريدة من المشاعر المبهجة استغرقتني، جمحت بي بعيدًا عن العقل والمنطق، هذا «السيد» لم ألتقِ به قبلًا في حياتي، لكن صورته الغائمة التي كان يطل من خلال الصحيفة مع مقالاته انطبعت في ذهني ووجداني، كان يبدو شاحب الوجه، جامد الملامح، ذكرني بناظر مدرستنا القديمة حينما كان يظهر أمامنا فجأة ونحن مستغرقون في اللعب والقفز والصراخ والتعارك، يظل يطالعنا من خلال زجاج نظارته الشمسية الغامقة، وملامحه الصارمة الجامدة، ولا ينبس، فترانا نتبخر من فناء المدرسة في ثوان، نظل نركض حتى يحتوينا الفصل دون أن نجرؤ على النظر إلى الخلف ومطالعة رد فعله، كنا نموت رعبا من الوقوف أمام هذه الملامح التي توحي بالصرامة والقوة، صورة «سيدي» في الصحيفة في صدر المقال مفعمة بجاذبية مغناطيسية غريبة وغير مفهومة، زلزلت كياني التواق لحروفه، وجرأته ومقالاته وكتبه التي مرقت بين يدي شغلت مساحات عريضة داخل عقلي وذاكرتي منذ أيام صباي وشبابي المبكر، ودغدغت مشاعري التواقة دومًا للتفرد والتميز، أفكاره كانت تطير معي في

أحاديث السمر المسائية مع أغبرة دخان السجائر والشيشة على المقاهي مع الأصدقاء، وفي المنتديات الثقافية، ولاحقًا حلقت في سطوري الورقية والإلكترونية، دائما كنت أراه ماثلًا أمام عيني، يقف بهامته المفرودة التي ارتسمت داخلي، يطالعني من خلال زجاج نظارته الطبية الملون السميك، وأنفه الكبير المقوس، وابتسامة تغرق وجهه الشاحب المشرب بسمرة الطين، تكسو بشرته الخمرية ندوب سوداء غائرة اكتست بهيبة الزمان، والأيام القاسية، لم تكن بذلته التي رأيته يرتديها ذات يوم في إحدى لقاءاته التلفزيونية النادرة مجرد إشارة إلى عمق أفكاره، وطريقته الفريدة في الظهور بين الناس فحسب، فقد كانت فضفاضة، كأنها تتسع لفضاء الكون كله، وتتمرغ برحابة عالم بدأ يضيق على ساكنيه، نسيجها الكتاني باللون الزيتي مشقوق طوليًّا بخطوط رمادية باهتة صادمة، يظهر من تحتها قميص أبيض مطفي وقد تزين برابطة عنق حمراء زاهية أحكمت تلابيب الرقبة التي نفرت عروقها إلى الخارج وكشفت عن مدى ساذج من الأناقة والزهو، إيقاعه كان بطيئًا أيضًا في الحديث في أثناء المقابلة وكذلك سرعة بديهيته، مع تدفق الأفكار والمعلومات التي يرسلها بسلاسة في اتجاه وجه المذيعة اللامع المدهوش، وقد تركت أحد فخذيها شديد البياض والجاذبية مرتاحًا فوق الفخذ الآخر من دون مبالاة، مصدرًا قويًّا لتحفيز خيال الصبية الصغار من أمثالي الذين اقترب أوان خروجهم من بوابة مراهقة الجسد المحفزة للحياة والحرية، في حينها كنا مولعين بالتحدث كثيرا،

وبالحكايات التي تحرر الخيال والجمال وتقاوم جميع السلطات الأبوية القامعة المستبدة.

كنا في هذا الوقت متقدين بالحماس والكلام الحميمي عن الحب والحرية والعدل والمستقبل، ونفتش عن خبايا الأمور داخل الصحف والمجلات والكتب التي يجلبها والدي إلى المنزل ليقرأ فيها مثل عادته، كنت أجد متعة كبيرة في الجلوس مع أبي وأصدقائه، أنصت بدهشة واستغراب لحكاياته عن الناس، والأحوال بينما يتزعم القعدة والمكانة في تلك الغرفة المهملة من منزلنا، والتي كان يسكنها صالون قديم تم ترميمه أكثر من مرة بواسطة نجار عجوز ثرثار صديق للعائلة وقتئذ، و كان هذا الصالون القديم مكتوبًا في قائمة الزواج التي وقعها والدي ليلة زفافه من والدتي، في هذه الغرفة احتفظ والدي بكميات هائلة من الكتب والمجلات كان يشتريها ويمضي أوقاتًا طويلة في قراءتها محتميًا من الضوضاء والشقاوة التي كنت وإخوتي نمارسها دائما، باب الغرفة العجوز كان موصدًا دائما ولا يستطيع أحد منا الاقتراب، عندما ينتهي من خلوته يفتح الباب فيصدر صريرًا هائلًا تنتبه إليه جميع الكائنات داخل البيت، كان للغرفة مدخلًا خاصًّا على الشارع، ولا يضطر الضيف القادم إلى المرور عبر مدخل البيت الرئيسي، وكان بابها لا يُفتح سوى للزوار والضيوف من أصدقاء ومعارف أبي وأمي في جلساتهم داخل منزلنا في أمسيات الصيف البعيدة، تلك أيام الهدوء والنسمات الرقيقة التي كانت تنسل داخل الناس فتحدث داخلهم حالة فريدة من التصالح والمواءمة مع واقعٍ صعب شديد المراس، وتظل نافذة غرفة

المجلس مُشرعة، يملأها أكسجين الصيف البارد المتجدد المنعش لجناحي رئات أولئك الذين أذبلهم غبار السجائر الذي يتدفق بوحشية وشراسة داخلهم، كما يتمكن ضوء المصباح النيون شديد الوهج من النفاذ إلى الخارج، وتنفذ معه أنفاس الحاضرين، وأصواتهم المتداخلة الصاخبة والهادئة في هدوء، شبح الحنين الجارف تملكني للقاء الرجل في قاعة المؤتمر، كأنني كنت متهيئًا للحظة غريبة مدهشة، شعرت بانفلات كامل عن السيطرة على مداركي وربما حركاتي الطوعية، الوعي لدي يتراقص، خيالات الصورة المطبوعة داخل ذهني تمتزج بمقولات وعبارات قرأتها له وعنه، ينشط معها الحماس والحمية والحنين للقاء شخصية عظيمة مقدسة مصنوعة محليا في مصنع أفكاري وخيالاتي ووجداني، ما زلت استمع بوضوح لإيقاعات ضربات قلبي وهو يتراقص كلما مضى المزيد من الوقت على حتمية اللقاء.

»سيدي» عبارة عن شخصية عظيمة تمكنت من الهيمنة بمنتهى الجبروت، ونصبت من نفسها إلهًا داخلي ينبغي أن أقترب منه أكثر فأكثر، وأن أمارس معه طقوس الامتنان والعرفان والخضوع، كأن هذه الخيالات، وطول رحلة البحث والتنقيب والعراك واللهفة الثائرة دومًا للاختلاف كل ذلك انسجم مع لهفتي المزمنة ورغبتي في تغيير العالم والقواعد، وتأسيس عالم جديد متطور وقابل للملائمة في أحلامي وخيالاتي، وغير مهدد بالارتداد إلى الخلف، عالم ترفرف فوق تلاله وفي سمائه أعلام الحرية والحب والعدالة. كنت أرى «سيدي» هكذا دائما، وهكذا صنعت له نصب إله في وعيي وفي خيالاتي وفي أحلامي أيضًا،

وهكذا اشتقت إلى لقائه وملامسة يديه ووجهه ونيل بركته، وهكذا كان يقول عنه والدي زمان في حضرة أصدقائه: «إنه نبي هذا الزمان»، لم أفهم هذه العبارة في حينها، لكنني الآن أعتبره «إله هذا الزمان»، الذي يهتز وجداني طربًا كلما اقترب زمن لقائه، واقتربت المسافة بيني وبينه، قلبي ما عاد يحتمل هذا الإيقاع المتسارع من التخبط، تحسست صدري بكف يدي الأيسر، أحكمت أصابعي جيدًا لكي أمسك به وأمنعه من القفز خارج جسدي، ضرباته القوية تصرخ لتسمع العالم، سيارتي تقترب من مصفها داخل الجامعة بالقرب من قاعة المؤتمر، قلبي يكاد يقفز خارجي، أصابع يدي نالها الإجهاد والتوتر، حان الآن موعد لقاء الحبيب، سوف ألتقيه وألثم يديه وأنال بركته، وأتمتع بالنظر إلى عينيه الجميلتين مصدر كل هذه المتعة وعظمة الحياة والعالم. سوف أحتضن «سيدي» الذي علمني كيف أكون إنسانًا مثلما أكون الآن، وعلمني أيضًا كيف أن القابض على مبدأه في هذه الأيام مثل القابض على جمرة ملتهبة من النار لا ترحم.

إنه «سيدي» الذي لم ألتقِ به يوما ما وجها لوجه، لكني التقيته كثيرا مع كل حرف خطه، ومع كل فكرة خلقها، ومع كل لقاء إذاعي أو تلفزيوني كان طرفه، من المؤكد أنني أعرفه جيدًا، أحفظ كافة تفاصيل خلاياه، لدي يقين من المستحيل خلعه أنه يعرفني جيدًا، وينتظرني بشغف مثلما أنتظره.

عبرت بوابة المبنى الذي ينعقد فيه المؤتمر، فضاؤها الفسيح متروس بالوجوه المألوفة وغير المألوفة، والأسمال الرسمية وغير الرسمية، والأجساد النحيلة والبدينة والعريضة، تفوح روائح التبغ والعطور الرخيصة التقليد والثمينة الأصلية تعطر فضاء هذا السوق البشري العجيب، اقتربت كثيرًا من لقاء «سيدي» الذي صنعته، في طريقي عبر الردهة الفسيحة شددت على أيدي الكثيرين، واحتضنت الكثيرين، انفلتت مني نظرات غريزية حادة الطبع نحو امرأة تبدو أربعينية تتدثر في عباءة حمراء شفافة فوق فستان أسود عاري الظهر والصدر، لحم جسدها الأنثوي الناصع الأشهب يصرع عيون أولئك الذين تحلقوا حولها، مضيت في طريقي مثبت البصر على روابط العنق والوجوه الرجالي التي تتبدل ألوانها وأشكالها حولي حتى أدركته من بعيد، كان يقف على بوابة القاعة التي سيبدأ داخلها احتفالية افتتاح المؤتمر، بدت القاعة فسيحة، متسعة، ما تزال غالبية مقاعدها شاغرة، والضوء المسكوب داخلها شديد، هرعت نحوه، سبقني إليه قلبي وتلاحقت ضرباته، قبضت على كفه الأيمن الذي كان متكئا به على الجدار، احتويته في صدري، رفعت كفه وقبلتها في تلهف وخشوع، استوليت على رأسه أمطرتها بقبلات عاشق ملهوف للقاء معشوقه، أمطرتني عيناه وبرودة أطرافه بوابل من نظرات ومشاعر الاستغراب التردد، بدا الأمر كأنه لا يعرفني، كان يتملكني شعور جارف أنه يحفظ كافة تفاصيلي، سحب كفه من حصار يديا سريعا، أنصت إلى صوتي الواهن وأنا أقدم نفسي له على اعتبار أني من مريديه وتلامذته

المخلصين، لم تتغير ملامحه وفق ما كنت أتمنى وأتوقع، كَثُر الناس حولنا، انشغل في حوار مع امرأة تحدثت معه بأريحية كبيرة، بدا مبهورا، مهتما وسعيدا بكلامها معه.

وقفت مبهوتا لدقائق بينما انشغل يتابع محدثيه الأقرب الذين أحاطوا به، يتباسط معهم في إلقاء النكات والغمزات والكلام التافه، كأني انمحيت تمامًا من محيطه على الرغم من أني ما زلت أقف قبالته، قلبي ما زال يعزف لحن العشق.

طالبنا المنظمون للمؤتمر بالدخول ريثما يبدأ حفل الافتتاح، تسللت من المكان في هدوء وخيبة أمل زلزلت كياني، لم يشعر بي، ربما لم يهتم، أخذت معي الغصة، رانت في الأفق علامات الهزيمة، من موقعي في الصف قبل الأخير لمحته يتوجه نحو المنصة التي كان يتصدرها ثلاثة رجال، سيادة الوزير الذي سيفتتح المؤتمر، ورئيس المؤتمر، وأحد رجالات الثقافة الكبار الذي شغل جميع المناصب الرسمية، وحصل أيضًا على جميع الجوائز الرسمية، تتردد أقاويل كثيرة عن مبلغ نفوذه الجبار في الوزارة حتى الآن، وعلى الجميع، يبدو فعل الزمن واضحًا على تقاطيع وجهه المنكمشة مثل بطة مترهلة تمضي أيامها، الشيب الذي كسى تفاصيله تميز بوضوح في الحاجبين، شكلت كثافة الشعر الأبيض فوق عينيه الذابلتين قوسين كبيرين مميزين.

أفكار الرجل مشعر الحاجبين وكتاباته، والذي كان يجلس على المنصة مثل ثعلب عجوز ماكر في ثقة متحدية أثارت الجدل في توجهها المتين الداعم لكافة أنظمة الحكم السياسية على مر العصور، الأمر الذي جعله يحتفظ بسلطاته ونفوذه على مدار العقود الماضية رغم تباين السياسات والتوجهات والأفراد.

كنت دائما أعتقد أن مثل هذه النوعية من البشر معوقة لحركة الحياة والتطوير والتغير في المجتمع، هكذا كان «سيدي» يعتقد أيضًا، هذا الأمر انعكس في مقالاته في الصحف، وفي كتبه الكثيرة، نفس الأفكار ونفس المعتقدات، لكنه الآن على مرأى من قلبي، ومن عقلي الذي بدأ يتضعضع، طفق يحجل بسرعة حتى بلغ المنصة، قبض على يد الرجل المشعر كثيف الحاجبين، نطلق عليه في جلساتنا رجل كل العصور، الذي اعتصر الزمن جسده، لم يبقَ له سوى صوت مميز رخيم، الشيء الوحيد الذي يخبر عن وجوده في عالم الأحياء، بمجرد أن وصل إليه عند المنصة حتى طفق يلثم يديه وخديه ورأسه في مشهد رآه غالبية الحضور في الصفوف الأمامية، هذا المشهد وضع حدًّا لضربات قلبي، سكتت فجأة، شعرت بدوار شديد، ورغبة في التقيؤ، لكن الذي حدث قبل أن أدخل في نوبة الإغماء الكاملة أني لمحته ينسل إلى مقعده في هدوء، أسارير وجهه منبسطة، تكشفها ابتسامة عريضة مريحة، بينما صوت مقدمة الحفل الشابة الجميلة يتردد بزهو داخل القاعة يعلن عن افتتاح المؤتمر، قبل أن يحملوني خارجها لأتلقى إسعافًا أوليًّا لعله ينعشني.

جمعة يتيمة

الطريق إلى المسجد كان مفروشا بالصهد، كأن شمس يونيو تنتقم من أولئك النفر الذين يركبونه في تلك الساعة من الظهيرة، يبدون مثل أشباح نحيلة قصم الإعياء ظهرها فصارت تمشي مقوسة، ثقيلة الحركة، تنز منها حبات العرق كما الندى ينثال من شجرة التوت، الغصة كانت تمشي معه في ذلك الطريق المحرق، اليوم الجمعة الأخيرة في شهر الصوم، على مشارف بضعة أيام من نهايته، عطش الصيام تمكن من زوره، لكن ما يزال صامدًا، يمضي في الطريق منجذبًا بقوة مغناطيسية جبارة لصوت الشيخ على المنبر، الصوت يضرب الآفاق من خلال مكبرات صوت قوية معلقة على سور المأذنة العالية، المكبرات تقذف بالصوت إلى جميع الجهات الأربعة الأصلية للأرض.

اهتاجت داخله أشجان الفراق، وألم لحظة النهاية، هل حقًّا ستكون تلك لحظته الأخيرة وهو متلبس هذه الحالة؟ هل يودع جمعاته اليوم؟ يدرك أن لكل شيء نهاية، لا يوجد شيء يدوم، كما لا يوجد شيء حقيقي، الزمن على الطريق ليس الزمن هناك على طريق آخر لا تنتقم منه الشمس مثل تلك اللحظة، والمكان هنا ليس المكان هناك في جانب آخر، والمسافة أيضًا هنا ليست المسافة بعينها هناك بعيد، وراء هذا الأفق المتجهم، ما الحقيقة إذن؟ تلك الأصوات التي ترسلها عقيرة رجل يخطب في الناس الآن ربما يكون شابًّا، أو ربما هو رجل هرم، لم يتحقق من شخصيته بعد!

تغمض عليه مع شدة صهد الحر، وشدة العطش، وهجوم قطرات العرق التي لا يستطيع وأدها، كل ذلك راح مع إعصار الغصة التي قبضت خناقة بينما يمضي

الآن في اتجاه المسجد الرابض في نهاية الشارع بواجهته المهيبة، وبوابته الضخمة، والمأذنة المسنونة التي تناطح السماء في ارتفاعها كأنها مسلة فرعونية عظيمة.

هل حقا انتهى الأمر وستكون تلك الجمعة الأخيرة التي أعيشها بوجداني المتلألئ الجميل وتلك الحالة الإنسانية الفريدة التي تتلبسني؟ انقلب كل شيء داخلي، وانقلبت أيضًا على كل شي، قائمة كبيرة من الممنوعات تجبر أعضائي الداخلية على الانصياع والتأدب، وتواجه دماغي المتباهي بحتمية الانصياع والطاعة، ممنوع الطعام، ممنوع الشراب، ممنوع التدخين، ممنوع التهور أو اقتناص لحظات من الرعشة الخاطفة الحميمة مع أنثاي، ممنوع النميمة والتطفل رغم شغفي الشديد لذلك، الليل دائما ممطوط، متمدد، زحام، ضوضاء، سهر، شوارع مزدحمة بالناس والضوء والضوضاء، أطفال ونساء لا ينامون، علقت عناقيد ورق الزينة الملون في كل مكان، الأنوار الصفراء الزاهية والملونة تضيء الدنيا وتشكل حياة أخرى مبهجة، معبأة للقلوب بالفرحة رغم بؤس واقع الناس ومرارته، حياة تأنس بالناس، وأنفاسهم على المقاهي والساحات وفي المنتديات وحتى في الشوارع، تتلألأ حركتهم فيها حتى الساعات المتأخرة من الليل، تصبح الدنيا مصنعا للبهجة والفرح رغم كل شيء، وفي المساء يقف في الصفوف الأخيرة خلف الإمام في صلاة التراويح والتأمل والخشوع، يعيش مع الجموع لحظة ذوبان فريدة في الناس ومع الناس، سهرات الخلاء مع الأصدقاء تمتد حتى الفجر، لها نكهة مميزة لا يمكن تذوقها سوى في هذا الوقت من العام فقط، ثرثرة مكبرات الصوت تتدافع مع سخونة أسفلت الطريق المترب الذي تستفزه إطارات السيارات المتعجلة للحاق بصلاة الجمعة الأخيرة، الأتربة الساخنة تتطاير، تملأ عيناه الملتهبتان بألم الفراق، صوت ثرثرة الشيخ يغمض أكثر فأكثر كلما اقتربت قدماه من بوابة المسجد، الغصة تتملك كل كيانه، لم يعد بإمكانه احتمال ألم فراق الأيام، دموع كثيرة ذرفت، النحيب تحول إلى بكاء بصوت مسموع، دخل المسجد، الإعياء تمكن منه تماما، وضع حذاءه على الرف القريب، كاد يسقط على الأرض،

فزع نحوه شابان كان يتابعانه في بكائه، استند إلى ساعديهما، ارتفع صوت نحيبه، صوت الخطيب لا زال ماضيًا في طريقه لكن لا يصل إلى المنتحب، حاول الشابان تهدئته، انضم إليهم آخرون آثروا الهروب من ثرثرة خطيب المنبر.

قال أحد الجلوس وكان يتابع الموقف باهتمام لافت: «رجل يبدو في أزمة أو مشكلة، أو يدعي مشكلة للحصول على المال من المصلين»، وافقه كثيرون، بعد انتهاء الخطبة، نزل الشيخ من فوق المنبر، أعلن للناس قبل أن يبدأ الصلاة: «من يطلب مساعدة مالية عليه أن يخرج من المسجد ويطلبها وراء الباب».، عاصفة النحيب تحولت إلى إعصار، لم يفهم ما قاله الشيخ، ربما لم يسمعه من أصله، ولم يفهم كل الذين أحاطوا بالرجل، أو حاولوا مساعدته أنه لم يعد يحتمل ألم فراق أيامه التي تمرق بسرعة حتى اقتربت من حافة النهاية.

خرزات الضوء

فرقعات مكتومة دوت في فضاء الحديقة الساكن شبه المظلم، طارت أذناب من اللهب إلى السماء، تفتت إلى خرزات ضوء حمراء صفراء وزرقاء وأرجوانية تزامنت وتزاملت في تشكيلات رسمت على قبة السماء الزرقاء لوحة لشجرة الكريسماس الخضراء المخروطية، وقد نقش شعرها المنفوش بالخرزات الضوئية ذات الألوان الزاهية، كما ظهرت لوحة أخرى لوجه كامل الاستدارة، صنعت فيه خرزات الضوء تشكيلا زاهيًا بدا كأنه وجه مخلوقة مثل القمر المكتمل، كانت تتابع فناء الحديقة والرؤوس المرفوعة نحوها بأعينٍ مدهشة لامعة الزرقة وفم وأنف دقيقين كأنهما نتفتان من ضوء حليبي مغموستان في فضاء مهيب تشكله ألوان الطيف النزقة اللعوب المتباهية بوجه القمر. في بداية مطالعتي وتحديقي في السماء أبهرني منظر وجمال خرزات الضوء وهي تتراقص وتتمايل وتتشكل لوحاتها قبل أن أستفيق من هدوئي المبهور على ابتسامة «وجه القمر» يطالعني باهتمام، يبتسم لي في حياء، يهمس في أذني في مناجاة، تسمرت جوارحي، انفصلت عن صاحبي جواري، وعن الحديقة وروادها، وعن الصخب الذي لازم المفرقعات والأضواء، وعن عناق المحبين ساعة إطفاء الأنوار في تلك اللحظة المدهشة من الزمن «كأنها هي»، التقاطيع، الملامح، الحيوية والجمال وخفة الدم، تأكدت

أنها عادت من جديد، تهفو بقوامها الممشوق، تخطر بحركات الملكة بين وصيفاتها، تنثر الجمال والبهجة بين أولئك التواقين إلى مجرد نظرة من عينيها الجميلتين.

هكذا كانت في هذا المكان في العام الماضي، لكنها الآن تخطر من العلياء، متوشحة بخرزات الضوء الملونة، تسكب دفأها فوق الرؤوس التي تطالع السماء بنفحات من الطيبة والحب والبهجة وربما السعادة.

انتبهت جيدا إلى همسها ووجهها الحليبي الذي اعترته مسحة طفيفة من الحزن والقلق، كأنها أرادت أن تبوح لي بسر غامض، ربما لم أستطع أن أجمله داخل خلايا رأسي التي اعتراها شلل عظيم في تلك اللحظة الفريدة، تسمرت عيناي تطالع في العلياء وفي جميع الجنبات، تراقب خلاياها وهي تتنقل بين المدعوين في الحفل بمنتهى الخفة والرشاقة والوداعة مثلما اعتادت في الماضي، تنثر البهجة والفرح في عالمهم البارد القاسي، الذي خلا من الطمأنينة والحب وتمدهم بالزهور والحلوى وتدعوهم لتناول وجبة العشاء.

لم أدرك كم مضى من الوقت على هذا اللقاء الشخصي المتميز، ولا حتى عما إذا كان أحدهم قد شاركني إياه في لحظة لقائها والفوز بابتسامتها الجميلة، كل ما أدركته أن خرزات الضوء لم يعد لها وجود في السماء، وأن المدعوين قفلوا عائدين إلى موائدهم وصخبهم وانفلاتهم، وأن صاحبي ينقر بإصرار وبقوة على كتفي ليستعيدني من شرودي المذهول.

حينما التفت إليه شدني الذهول ثانية بقوة هذه المرة، لقد رأيتها، كانت تقف بجواره، هي نفسها بشحمها ولحمها من كانت تخاطرني من السماء منذ قليل، لكن ملامح الوجه القمري أصغر بنحو عشرين عاما، أجل ابنتها الجميلة التي تشبهها كثيرا في كل شيء حتى في عذوبة صوتها وعينيها الجميلتين، كأنها هبطت من عليائها وألبستها روحها وجسدها أيضًا، جاءت تدعونا إلى البوفيه المفتوح الذي أعدوه في تلك المناسبة الفريدة التي اعتادوا على إقامتها مع مطلع كل عام جديد.

أنا ومراهقي

أم رتيبة وجدتي محبوبة صديقتان متلازمتان من الزمن القديم، علاقتي بهما بدأت من خلال عدة صور قديمة عثرت عليها بالصدفة بينما كنت أنبش في أوراق قديمة بحثًا عن صور تخصني وأنا طفل ألهو في الحدائق وشوارع وسط البلد في الماضي، كنت أشتاق جدًّا إلى هذه الأيام، حالة الحنين نحو الماضي تطن في صدري وتوجه تصرفاتي نحو نبش أدراج المتعلقات القديمة المهملة منذ سنوات، قفشت أصابعي صورة قديمة لسيدة أربعينية وبجوارها سيدة أخرى تماثلها في نفس العمر تقريبا في وضع تصوير جدي للغاية، أخبرتني أختي الكبرى السبعينية التي تقيم معي بعد وفاة زوجها وتفرق أبنائها في بلاد الله الواسعة بحثا عن الرزق أن هذه الصورة لجدتي لأمي، اسمها محبوبة وصديقتها أم رتيبة،
الصورة تبدو باهتة، وملامح الوجوه تكاد تبين بصعوبة، المرأتان كانتا تتدثران بعباءات سوداء وشعر الرأس طليق متدلٍ حتى البطن يتباهى بلونه الفحمي الذي يكاد يتمرد على الانحباس داخل الصورة، باستمرار النبش عثرت على صورة أخرى لجدتي محبوبة وجدي يقفان متجاورين في وضعيه رسمية، كانا مستسلمين تماما للمصور المحنك، هكذا أخبرتني أختي، ثم صورة ثالثة لجدتي وأم رتيبة وكانا يقفان متجاورين في ركن أستديو التصوير كأنهم غير مهتمين وكانا يضحكان، ولم أعثر على صور خاصة بأبي، أختي قالت أنه مات قبل أن أُولد بشهور قليلة،
فيروس الكبد نهش بطنه وقضى عليه في عز شبابه، علمت في أثناء

لحظة الفوران الحنونة للماضي أن جدتي وأم رتيبة رحلتا في أسبوع واحد قبل أن تنتمي مداركي للحياة، كنت حينها صغيرا صاحب ثلاث سنوات، في يوم سبت رحلت أم رتيبة بصورة مفاجئة ومن دون مرض، ولحقتها جدتي محبوبة في يوم الخميس التالي بصورة مفاجئة أيضًا ومن دون مرض، المدهش أنني التقيتهما اليوم، كانا يتسامران بينما كنت أجوس في الشوارع من دون هدف أو وعي. رأيتهنَّ تجلسان في مدخل باب البرج السكني الشاهق المقابل لمنزلنا، يقولون إنه كان منزل أم رتيبة أيام الشارع القديم، وبعد رحيل الجميع باعه الورثة لتاجر أخشاب سمين يحمل شاربا عظيما يتدلى حتى ذقنه الحليقة ويسعل بشكل متواصل بطريقة تستدعي الشفقة والإزعاج، خصص الرجل الدور الأرضي بالكامل ورشة نجارة ملأها بماكينات حديثة لتقطيع وتشكيل الخشب وتهذيبه وثقبه وخلافه وبدأ بتصنيع وتوريد وبيع الباب والشباك، ثم لاحقا فتح ركنا خاصا بصناعة الأثاث، ارتفع بالبرج السكنى إلى مسافة اثني عشر طابقًا، كل طابق مكون من ثلاثة شقق سكنية اشتراها غرباء عن المنطقة والحي وبعضهم أتى من محافظات بعيدة، الرجل صاحب الشارب الضخم والسعلة المفطرة للقلب نافذ بقوة المال وسطوته إلى جميع مسئولي الحي والمحافظة ويفعل ما يحلو له في الشارع وكل ما هو ضد القانون من دون أن يهاب أحدًا، مشهد المرأتين اللتين خرجتا من الصور القديمة صدمني بقوة، تشككت في عقلي الذي قد يكون انحرف خاصة مع تلك التيارات الحنونة التي جرفتني هذه الأيام واتخذت شكل موجات متتالية تهاجم وعيي ومخزن ذاكرتي، تساءلت من دون انشغال

هل يمكن أن تأتي امرأة من زمن قديم وتجلس القرفصاء ربما لكي تلتقط صورة أخرى بعد نصف قرن من موتها وحبسها داخل مقبرة موحشة؟ جدتي محبوبة كائن أسطوري وصل صداه إلى مداركي في صباي، دائما كانوا يقولون لي إنها امرأة عظيمة، امرأة جبلت على العطاء، ساندتنا بقوة بعد وفاة والدي، أعطتنا كل شيء، مرضت أمي بعد مجيئي إلى الدنيا، كانت جدتي محبوبة تفعل المستحيل من أجل أن نظل على قيد الحياة، ماكينة الخياطة خاصتها ظلت تدور لسنوات كي تأتي لنا بالطعام والملبس ومصاريف المدارس وعلاج أمي حتى ماتت في شتاء أحد أيام شهر رمضان، كنا نترقب أذان المغرب قبل دقيقتين، هلعت لصرخة أختي الكبيرة، «جدتنا لا تتحرك ولا تتكلم»، مداركنا لم تكن تعرف معنى الموت، على الرغم من ملازمته لنا كل هذه السنوات، جاء الجيران وازدحم البيت، يومها أدرك الجميع حتى أنا بالطبع أن جدتي محبوبة ماتت، هذه السيدة الأسطورية لم أتمكن من استرجاع صورة ملامحها، ربما أن ذاكرتي لم تكن تشكلت بعد حينما ماتت، أو ربما رفضي القاطع لفكرة اختفائها من منزلنا وقد كانت مصدره الوحيد للدفء والسند، يقولون إني نمت على سريرها ليلة أن حملوها إلى المقبرة لكي يغلقونها عليها إلى الأبد ويعودون من دونها، ويصبح عالمنا فارغًا، قاسيًا من دون معين، مشهد المرأتان المتجاورتان يتهامسان في مدخل البرج السكني قبالتنا ضاع في زحمة أيامي وأفكاري خاصة أني قد شارفت على الجنون والرعب من تصرفات ذلك الضابط الشاب الأحمق الذي يصر على الزج بابني طالب الثانوية العامة إلى السجن لأنه سخر

منه بحسب زعمه في أحد الكمائن التي يزرعونها في كل مكان في أعقاب الحوادث الإرهابية العنيفة التي تضرب البلاد هذه الأيام. اليأس تملكني من إمكانية اختراق هذا الضابط الغاضب، أو على الأقل التقليل من حقده المنفوث تجاه ولدي المراهق هزيل الجسد والصوت والابتسام.

شرودي وتجوالي الطليق في المساء، واشتعال رأسي بالقلق والغموض على مصير مراهقي الذي اضطر إلى الاختفاء بعيدا عن ملاحقات الشرطة يذهب بي إلى الجنون، يقولون إنه متحالف مع الإرهابيين!

كانت امتحانات الثانوية العامة تطرق الأبواب والقلوب والعقول المشلولة، وكنت أسير في الشارع مثل التائه الذي تحركه أقداره بين البنايات، يطالع أشباحا غريبة تترنح في الشوارع، خالية من الانفعالات والمشاعر، بل وخالية من الحياة أيضًا، هناك عند مدخل البرج السكني المقابل لباب منزلي عاينت للمرة الثانية المرأتين جالستين تتهامسان بصوت اخترق جميع حواسي، اتضح من ملامحهما جدية الحديث والإنصات والصمت، واتضح أيضًا أن وعيي شبه الغائب سجل تلك اللقطة بسرعة عجيبة وماثلها بالصورة باهتة الملامح لجدتي وصديقتها المقربة أم رتيبة، الذي أربكني بحق هو ذلك الطنين المتواصل في رأسي والذي لن يوقفه سوى التحقق من المشهد الذي تركته خلفي منذ قليل حتى من دون أن أمعن النظر إلى الوراء في اتجاه مدخل البرج السكني الذي يفرشه الضوء كالنهار، أدركتني ضوضاء منزلي، الأطفال فرغوا من

امتحاناتهم ونحن الآن على أبواب الثانوية العامة، لكن ظلت الصورة، وظل الحدث يرافقان تفكيري وخيالي ويجبراني على الصمت.

لم يكن يومي طبيعيا، بل صعب، التوترات ترافقني في كل مكان، هاجمت مديري في العمل بشدة لمجرد أنه انتقد تصرفي بعصبية حيال زميل في قسم آخر، كنت فاقد السيطرة على انفعالاتي ولساني لأول مرة، رفضت محاولات الجميع للتهدئة وغادرت غاضبًا من دون استئذان، لم يكن اضطرابي طبيعيًا ولا الشارع أيضًا، كأن كل شيء يناصبني العداء، مراهقي الصغير مشرد في الشوارع بسبب ذلك الضابط الأرعن الذي يصر على إيداعه في السجن لمجرد أنه سخر منه أو استهان بتعليماته حينما طالبهم بالتراص في الصف وإبراز الهويات الخاصة، مراهقي حالم، خجول، منطوٍ، معتد بنفسه جدًّا، شارك في الثورتين بحماس بالغ رغما عن نصائحي لإبعاده عن المشاكل وشغل عقله بدراسته، لكنه عنيد، عصبي المزاج، يحلم أن يكون العالم نظيفا وعادلا وخاليا من الظلم، أخبرني زملاؤه الذين استوقفهم الضابط ورفاقه في تلك الليلة أن الجميع كان يتصرفون بعصبية زائدة، الناس في الشارع والأمناء والضباط والعساكر، أوقفونا قبل طلعة الطريق الدائري من جهة ترعة المريوطية، أخرجونا من السيارة، كنا خمسة شباب، غلالة المساء كانت طاغية كتمت شذرات الضوء التي تبثها أعمدة الإنارة الحكومية الباهتة من الانفلات، المنطقة تبدو عبثية مترِبة، مثل خرابة مهجورة من البشر والحيوانات، خلق كثيرون وسيارات صافة في الساحة، الجميع غاضب، مصالحهم متعطلة، رجال

الشرطة يطلبون الهدوء للتحقق من رخص السيارات والهويات الشخصية، وكانوا في غاية العصبية والانفعال، طلب كبيرهم من الجميع التراص وإبراز الهويات بسرعة، تقدم الضابط الشاب، بدا مرهقًا، وعصبيًا أيضًا، توقع امتثال الجميع للأمر بسرعة، زعق فيهم بعصبية، رد عليه طارق مراهقي بنفس العصبية طالبا منه التحدث مع الناس بأدب، لم يحتمل الضابط الشاب عبارات طارق، توجه نحوه، الشرر كان يتطاير من عينيه المرهقتين، بدا أن عقال انفعاله قد فلت، طلب منه إبراز بطاقة الهوية بسرعة، رفض طارق وقال له: «ليس قبل أن أطالع هويتك الشخصية وأتحقق منك أولًا»، سخر الضابط منه في عبارات مبتذلة، دفعه بقوة في صدره، أمر العساكر والأمناء أن يضعوه في السيارة وأن يتحفظوا عليه، حصلت احتجاجات وهمهمة من بعض الموجودين في منطقة الكمين رافضة سلوك الضابط الشاب، جاء نظيره الكبير، حاول تهدئة الأجواء التي سخنت فجأة، أمر رجاله بالمغادرة بعد أن صحبوا معهم طارق، هرعت إلى قسم الشرطة حيث يحتجزون مراهقي، كان مضطربا ومتوترا ومشوشا للغاية، أخبرني بما فعله الضابط وكيف رد على تصرفاته الغبية، أبلغوني في القسم أنه واصل استفزازه للنقيب وخرج عن السيطرة، وأن الضابط يصر على تصعيد الأمر، نصحوني بتهدئة الأمور والاعتذار للرجل في الصباح حين يعود، مراهقي رفض الاعتذار، يقول: «هو من يجب أن يعتذر للناس.«

جاء الصبح التالي وكأن الجحيم فتح أبوابه لاستقبالي، الشوارع ممتلئة بالناس والأحداث والغموض، كنت أدلف في طريقي إلى قسم الشرطة

أتفحص رأسي التي أنهكها السهر وصلابة الجفنين، كأن حائطا خرسانيا عظيما بُنِيَ بينهما لمنع انغلاقهما.

الطريق كان ممطوطا، والأفكار المرهقة توسوس داخلي بحتمية رفع الراية البيضاء بأي ثمن، مراهقي صغير السن، يتمتع بحماس طائش، انطوائي لكن عنيد، يكره السلطة بكافة أشكالها ودائم التصادم معها، مستقبله وربما عمره على المحك الآن. يجب أن يرضخ حتى نعبر الأزمة، سمحوا لي بلقائه قبل مجيء النقيب، كان شاحبا، عيونه الضيقة حمراء وأسماله متسخة وممزقة نوعا ما وتحمل آثار عنف وكركبة الليلة الفائتة.

أخبرني عن آخرين ظلوا يستجوبونه ويسخرون من كلامه، وعن ضرب مبرح تعرض له خلال الاستجوابات الليلية، مراهقي بدا مثل الشبح المهزوم، واضح أنه قضى ليلة عنيفة متأزمة كسرت قدرات التحدي والعناد لديه، أخبرني في نهاية اللقاء عن رغبته في الاعتذار للرجل وإنهاء كل شيء، تركته للقاء النقيب ومأمور القسم، شعرت ببعض الخفة والنشاط، صعدت الدرج فالتقاني ضابط شاب وسيم بوجه متعاطف، قال بهدوء:

- ضروري أن تحضر محاميًا لابنك؛ تم إرسال المحضر إلى النيابة وسيذهب هذا الصباح، تولاك الله.

ضاعت من أمامي علامات الأفكار والطرق، اختلطت في عيني الأشياء والناس وانعدم اليقين، هاتفت محاميًا صديق طفولتي، هرع إلى النيابة لمقابلة طارق وطمأنته والاطلاع على المحضر ولقائي هناك، كان الجنون يسيطر على رأسي، وأخواه الطفلان يتحركان بيننا مثل أشباح لاهية، وأمه ذبحها الخوف والرعب واتشحت بالقلق والسواد.

قال الرجل:

- إنهم حاكوا محضر الشرطة بحنكة لإدانة طارق في النيابة واستجلاب الكثير من شهود الزور، وكيل النيابة قرر تمديد حبسه على ذمة التحقيق، سوف نسعى لإخراجه في العرض القادم بعد الاتفاق الودي مع الضابط.

كنت مع المحامي في النيابة هذا الصباح الحارق للقلوب والمشاعر، التقيت مراهقي، ظهر على وجهه وتفاصيل جسده ملامح التصدع والانهيار وذروة اليأس، تركناه لقدره واتفقنا على اللقاء في منزلي في المساء لتهدئة أمه المذبوحة.

إذا كان الجنون رجلا فليكن شخصي الذي تفتت أوصال عقله، وضاعت في متاهات غريبة قاسية، رنات هاتفي النقال تصر على الانعتاق، أحاول تجميع شتات أوصالي، أضواء النيون التي تفرش شقتي المتواضعة ما عادت تظهر الأشياء ولا الأشخاص، كائنات المنزل تحولت إلى أشباح باهتة وغامضة ويائسة.

على الطرف الآخر جاء صوت خشن غاضب ومنفعل يزعق بقوة، عرفني بنفسه أمين بالقسم المحتجز فيه مراهقي، أخبرني عن هروبه من مبنى النيابة قبل نقله إلى القسم، وأن هذا الأمر يمثل ضررًا كبيرًا بموقف المراهق في القضية، وضرورة إحضاره إلى مبنى القسم فورا، بمجرد انتهاء المكالمة الصدمة استفاقت أشباح المنزل على خبطات متتالية مع رنات هلعة لصوت جرس الباب، حسبناه هو مراهقي لجأ إلى رحم أمه المسكينة طلبا للحماية والأمان، لكن فناء الشقة الضيق امتلأ عن آخره بعشرات الرجال المدججين الغاضبين في لحظة بعيدة عن حسابات الزمن الاعتيادية، وكذلك عن حسابات التاريخ الذي يرسمه البشر خاصة الضعفاء منهم بدماء قانية الحمرة.

فتشوا في كل الأماكن والثنايا، بعثروا أسئلة كثيرة، وتهديدات أكثر، نثروا الخوف والرعب ثم رحلوا، بدأت أستجمع شتات أوصالي، وأتعجب من تلك المقدرة الفائقة لمراهقي الطفل الخجول المنطوي على تجميع كل هؤلاء البشر المدججين من أجل ملاحقته. أخبرني المحامي لاحقا أنه تم إضافة أوراق جديدة إلى محضر الشرطة وإرسالها إلى النيابة تثبت انتماء طارق إلى تنظيم إرهابي، يجب التحرك فورا للتفاهم مع الضابط الذي يصر على ذبح ابنك.

في هذه الليلة جرجرتني قدماي التائهة نحو الوحدة والاستسلام إلى ماكينة الأفكار وهي تدور من دون هدف، مجرد دورانها يخفف الكثير من توتري وقلقي الذي يفترس كياني، غلالة المساء قتم لونها، ضمخت

العالم من حولي باللون الأسود، قررت الرجوع قهقرى إلى المنزل واحتواء ساكنيه، عند مدخل البرج لمحت المرأتين جالستين في وضع القرفصاء يتهامسان، كأنهن كانتا في انتظاري هذه المرة، سمعت كل همسهم، ارتعبت في البداية، كأني رأيت شبحين، أو كأن الزمن رجع عشرات السنين حيث البنايات القديمة والتقاليد والحياة البسيطة الطليقة، ملامح الوجوه أشعلت فتيل الوهج داخل رأسي من جديد بعد أن اعتقدت أن كل شيء خبا داخلي، هذه الملامح كأني أعرفها، تسكن داخلي، سارعت الخطى خوفا أو فضولا لا أدري، اندفعت بسرعة نحو درج المتعلقات القديمة، زوجتي لحقتني وفي ثوان كانت فوق رأسي، اعتقدت أن لديَ أي أنباء تخص مراهقنا الغائب، أصابعي تنبش في الصور القديمة، وأعيني الجائعة تدقق في تفاصيل الملامح على الرغم من رؤيتهم قبل ذلك مرات عديدة، ولساني يتمتم من دون وعي «بالتأكيد هما، نفس الملامح، نفس الأسمال، نفس المكان»، وزوجتي تردد في استغراب واضح، «جدتك محبوبة وأم رتيبة صديقتها، ماذا حدث؟»، أخبرتها أني رأيتهنّ جالستان الآن في مدخل بيت أم رتيبة القديم، طلبت منها أن ننزل للجلوس معهم ولو خمس دقائق.

تفاجأت بسرعة موافقتها على الرغم من الدهشة والاستغراب والشفقة التي كست وجهها الحزين، هبطنا الدرج على عجل كأننا على يقين من اللقاء مع الماضي النبيل، وكأن زوجتي وهي تلاحقني في ركضي على الدرج كانت في شوق جارف للقاء جدتي التي سمعت عنها وعن صديقتها المقربة، تجاوزنا مدخل بيتنا، في ثوان كنا أمام مدخل البيت الآخر،

كشافات الاضاءة داخله قوية، صداها أضاء داخلي بوهج مدهش، استحالت العتمة إلى نهار متحدٍ، حملقت جيدا في المكان حيث رأيتهم جالسين، وطفقت زوجتي تردد آيات من القرآن، لم يكن في المدخل الرخامي اللامع المتلألئ بأضواء النيون شديدة الوهج في الظلام سوى حصيرة قديمة بالية لم يعد يقتنيها أحد هذه الأيام موجودة في نفس الموضع حيث كانا يجلسان، وفي المنتصف صينية قديمة فوقها فنجانين بهما آثار حديثة لشرب قهوة بنية داكنة اللون.

دلفنا إلى الخارج بسرعة، كان فضاؤنا مفعمًا بالضوء والأُنس، صعدنا الدرج دون أن ننبس، الأطفال نائمون في حجرتهم، وكنت في مكتبي أهاتف صديقي المحامي نبحث في خطوات التصعيد من أجل تبرئة مراهقي الغائب من

الاتهامات المزعومة، وتقديم شكوى في الغد ضد ضابط الكمين الذي يتربص بطارق ويكيل له اتهامات مزورة، هذا بالضبط ما أشارت به جدتي محبوبة وصديقتها في همسهما معًا من أجلي.

المساء الثقيل

الدكتور محمود رجل قلق بطبعه، ظفر خنصره الأيسر لا يكف عن العبث في قوس شعر الشارب المشذب بعناية، عيناه الضيقتان تبدو قاسيتين، تخترقان بشراسة زجاج نظارته الطبية السميك، تزوغان نحو الضيف الجديد الوافد حديثًا للعمل بالمستشفى في ريبة واضحة للعيان، معروف عنه أنه لا يثق في أحد، لا يصادق أحد، يعلن ذلك على الملأ بوضوح وبمنتهى التبجح، متباهٍ، يخطر في الردهة المفضية إلى استراحة الأطباء محكومًا بزكة خفيفة في قدمه اليسرى، اختلف الجميع في تفسير مصدرها، هل بسبب حادث سقوط في طفولته المبكرة، أم بسبب شلل الأطفال اللعين الذي طمره بكل هذا الحقد والغيظ تجاه الآخرين، لا يبالي بنظرات الإشفاق أو السخرية التي تضرب ظهره في أثناء مشيته العرجاء وتجعله يتحرك كأنه بطة عرجاء مترهلة، يدرك عن يقين أنه الأعظم بين كل هؤلاء في ذلك السيرك الكبير المسمى مستشفى، استطاع بمهاراته في إتقان أكثر من لغة أجنبية، وخبراته الإكلينيكية الفائقة التي أمضاها نائبا في كلية الطب أن يسيطر على أدمغة وقرارات إدارة المستشفى ومسئوليها، نجح بامتياز في خلق صورة ذهنية أسطورية عن نفسه لدى الآخرين توحي بمبلغ أهميته وخطورته بالمستشفى.

تحول إلى «كاريزما» من نوع خاص، أحاطته طاقة غريبة غلفته بنوع مميز من الهيبة والقوة، استثمر ذكاءه واتصالاته وعلاقاته في تأكيد هذه الصورة وكان يتصدر الجلسة وقت استراحة الأطباء والعاملين بعد الظهر في زهو مفرط، يسب ويلعن آباء وأمهات وجدود كل من لا يرضى عنهم، بمرور الوقت، وتجنب الآخرين لدغات لسانه، وشرر نظراته، وتقاريره للمسئولين في الغرف المغلقة، استحالت جلساته في الاستراحة مع وصلة السب والردح إلى فقرة «كوميدية» ساخرة مهمة يحرص الجميع على حضورها، والتمتع بالقهقة على ما يخرجه لسانه من نهر

السباب والشتائم المنغمة بخفة الدم والفكاهة، ونشوة التسمع لما ينسجه خياله عن نفسه من مواقف بطولية وإنجازات عظيمة خارقة.

كل ما يربطه بالحياة وبالآخرين هو الصراع، لا يمكن أن يمر يوم دون شجار مع أحد، أو أن يسب أحدًا، أو أن يشارك في إيذاء أحدٍ، يعتقد أن الجميع يعادونه ويتربصون به، وأن مشكلاته دائما تأتي من الآخرين الأعداء، والمدهش أن إدارة المستشفى اكتشفت أن السيطرة على سلوكيات الدكتور محمود تأتي عن طريق تحرير حركته، وتأكيد الصورة الذهنية التي رسمها عن نفسه لدى الناس وصدقوها، تلاقت مصالح الطرفين معا، الرجل يبحث عن سلطة وقوة بين زملائه، والإدارة تبحث عن رجل يبدو قويا يحدث صراعا وإرباكا في بيئة العمل، يشرذم الآخرين، ويضعهم في حالة رعب وترقب قصوى من فقدان الوظيفة، بالإضافة إلى أنه يُعدُّ مصدرا عظيما للمعلومات والتقارير التي يكتبها عن زملائه الأطباء والعاملين الآخرين.

مدير الإدارة الماكر اعتاد أن يهمس في أذنه ببعض القرارات المستقبلية، خاصة ما يتعلق بالاستغناء عن بعض الموظفين، أو التوقف عن صرف مكافآت للبعض، ثم يأتي الدكتور محمود بعد الظهر في «كافيتريا» استراحة الأطباء متباهيا ويعلنها مع تعظيم دوره الشخصي بالطبع، وقوة تأثيره في صدور في هذه القرارات، دائما المساء ليس مريحا أبدا للرجل، ستار الظلمة يقترب من الأرض وينقبض معها المزاج ويفر الأطباء والعاملون خارج البوابات في أرتال غير منتظمة إلى بيوتهم ونسائهم، بينما يقف الآن هناك أمام سيارته التويوتا الحمراء الجديدة اللامعة يرقب مشهد الغروب وانصراف الآخرين، ضربات قلبه تتسارع مع انسحاب النهار وزحف الهدوء القاتل، والصمت المريب المجنون. ينتهي وقت العمل، ينصرف الجميع، المكان تحول إلى ساحة للصمت والقتل البطيء. ينظر حوله في موقف السيارات الكبير، هدوء، عزلة، كائن وحيد أمام سيارة جديدة لا يمكن أن تفهمه

أو تتواصل معه، لا صديق، لا صديقة، لا زوجة، لا أحد، فقط بضعة أشخاص أجانب اعتاد صحبتهم، لكن ليسوا متاحين معظم الوقت، والمنزل يحوي شبحين غريبين لم يعتد وجودهما بعد.

مشكلته يدركها تماما، حينما تخفت شدة قوة الصخب والضوضاء والصراع الخارجي حوله أو تسكت، وينخفض معدلها عن شدة قوة صراعه الداخلي مع نفسه، هذا الفرق يتسبب له في حالة غريبة من القلق والاضطراب وعدم الراحة.

سعى كثيرا إلى حل مشكلة المساء في السابق عن طريق الإكثار من المناوبات المسائية التي يتهرب منها غالبية زملائه حيث يفرغ شحنة توتره في بطون العاملين في المناوبة، ويستمر في الدوران والحركة والإزعاج طيلة الليل لا يستسلم أبدًا لهدوء أو راحة.

لكنه الآن تقدم في العمر وتقدم في المقام، أصبح استشاريًّا كبيرًا في المستشفى ولا يمكنه المبيت داخلها، ناهيك عن أن المساء دائما يحمل له الأخبار المزعجة.

ذات مرة أيقظوه من رقدته في المناوبة، أخبروه بوفاة والده حيث كان يتابع غسيل كليتيه بعيادة خارجية بأحد المستشفيات الخاصة الكبري، لم يكن الانزعاج متعلقا بوالده بدرجة كبيرة، فقد سافر أبوه كثيرا وابتعد عنه كثيرا، اصطحب أمه معه في مسافاته البعيدة وانسحب بهدوء من ذكرياته وأيامه، لم ينزعج لوفاة والده بقدر انزعاجه بالسرعة التي توفيَ بها الرجل ونهاية رحلته مع الترحال والسفر والاغتراب، توفيَ بينما كان يلف ويدور في مناوبات لا يلوي على شيء.

أبوه كان في صحة طيبة رغم المرض، وذهب إلى المستشفى لإجراء جلسة غسيل كلوي اعتيادية وإجراء بعض الفحوصات الأخرى، لكنه مات، أيقظوه حين تسلموا النبأ من والدته، سيطر عليه الذهول والصمت مدة كبيرة، وذات مساء آخر

هاتفه أحد أصدقائه العالمين ببواطن الأمور بكلية الطب بخبر زلزل كيانه لم يفق منه حتى الآن، كان قد حصل على درجة الماجيستير بتفوق وأنهى فترة نيابته في الكلية، كان قلقا ومضطربا بشأن قرارات مجلس الكلية بخصوص تعيينه مدرسًا مساعدًا بسبب وجود ابن أحد أساتذة الكلية ذوي النفوذ منافسا له في الدفعة، أخبره صديقه في هذا المساء الكئيب أن الكلية رفضت تعيينه لحساب الغريم الأقل منه تفوقا وترتيبا ووالده الأكثر نفوذا، لم يعد المساء اللعين يمثل له غير فقدان «الرجل الشبح» أبوه الذي جال في البلاد، وجال في الأيام، وعاد لكي يموت قبل أن يخبره أنه ما زال في انتظار عودته التي لم تتحقق، حتى بعد مهاتفة والدته له وإبلاغه بسكوت الرجل إلى الأبد.

المساء دائما غامض وقبيح، تأكد بعد انتهاء مكالمة الهاتف أن أبيه رجع أخيرا من السفر، وأنه قد غيب إلى الأبد، وأن عودته الجسدية من الترحال قبل ثلاث سنوات استحالت في وعيه إلى مجرد شبح غريب يزور خياله من حين إلى آخر، كان حينما يبرم في فضاء الشقة الواسع يوم عطلته الأسبوعية يرمي بصره نحو الركن القصي في غرفة المعيشة في اتجاه جلبة التلفاز والأصوات المتصارعة لأبيه وأمه المتكئين فوق الكنبة الفاخرة التي تتصدر الصالة المهولة، يراهما الاثنين مثل شبحين غائمين غريبين قدما توًّا من المقابر يمضيان وقتا ثقيلا.

لا يريد أن يرحل؛ المساء اللدود يناوئه دائما بالعدوان، داخل ظلماته تجرع كثيرا من كأس الظلم والحقد، والفقد الإنساني القاسي، بحكم ذكائه وقوة بصيرته يدرك أن اندفاعاته وعدائه للآخرين خاصة الضعفاء منهم قد يكون تعويضا غير مجزي عما تآكل داخله من نزعات إنسانية وروحية بسبب الشلل والظلم والفقد، ويدرك أيضًا أن القوة قد تحقق له مكانة عظيمة وسطوة مطلقة لكن لا تخفف من التوتر الذي يضرب جوانحه بشراسة.

جراج السيارات يفرغ سوى من سيارته التي طمرها الظلام وأعواد الإنارة الباهية، مفتاح سويتش السيارة يدور، تدور معها العجلات والأفكار وظلام أسود قادم يحمل داخل ظلاله أنَّات من دهسهم في ذروة نهاره وطوتهم ذاكرته الماكرة إلى غير رجعة.

السيارة تمضي في شارع تجاري مزدحم، وسحب الظلام داخله بدأت في التصاعد والفوران، سحب هاتفه المحمول من جيب سترته الكحلية الأنيقة الذي اشتراه من المتجر أول أمس، الأرقام التي طلبها جميعًا إما مغلقة أو مرفوعة من الخدمة، السيارة تدور في الشوارع، ثريات الكهارب لم تفلح في إنارة الداخل المعتم، اندفعت السيارة، اندفع الظلام وراءه ملاحقا، لم ينتبه إلى صوت الهاتف هذه المرة، وقفت السيارة أمام المنزل، في طريقه إلى الخروج منها زعق الهاتف ثانية، الرقم مألوف، والابتسامة عريضة، لكنها انطفأت فجأة، تحسس خطواته في الظلام، لم يعد يرى شيئًا، صدى صوت الهاتف فقط ما زال يهمس في أذنه، همسًا متواصلًا، «الإدارة قررت الاستغناء عن خدماتك، والسبب غير معروف حتى الآن!، في انتظارك بالمستشفى غدا لاستلام ملحقاتك الشخصية إلى حين إنهاء إجراءات فصلك من الخدمة.«

توترت خطواته بينما كان يدلف داخل الشقة الفاخرة التي اشتراها أبوه الراحل من مال الترحال والغربة وعاش فيها شبحًا حتى مات، أمه الشبح تغط في نوم عميق داخل غرفة نومها الفاخرة جدًّا، لم تشعر بخطوات ابنها المتوترة وهي تصطدم بأثاث الشقة الفاخر، ولم تشعر بنحيبه الذي لم يتوقف طيلة ما تبقى من ليل ثقيل للغاية.

لقاء

ثلاثتهم قدموا تباعا وفقا للموعد المضروب بينهم، التجمع حول الثالثة بعد الظهر داخل كافتيريا الأمريكيين العتيقة وسط القاهرة، رأفت صاحب البشرة الداكنة والجسد النحيل، وصاحب الدعوة، اضطجع على الكرسي المواجه لشارع فؤاد يرقب الناس من خلف الواجهة الزجاجية من خلال نظارة طبية معلقة في وجهه وكان زجاجها سميكًا، والكثير من الأفكار تتصارع داخل جمجمته المخروطية التي يحميها شعر مجعد أهمل قصه منذ فترة طويلة، اقتربت أيام مغادرته إلى عمله بالخليج، لم يعد لديه متسع من الوقت ليضيعه، نبيل ذو الوجه الحليبي الرائق، دائمًا يتستر خلف ابتسامة عريضة، أربعيني، بدانته تتناسق مع استدارة وجهه ولمعانه، أنفاسه عادة ما تتصارع مع ضربات قلبه كأنهما في سباق ماراثوني مرهق، كان العرق ينثال بغزارة من جبهته ورقبته لدرجة أن قميصه القطني الأصفر تلطخ ببقع العرق في كل مكان، ظهر من خلال زجاج النافذة حسام مصحوبا بحركاته الثقيلة، وقامته الفارعة وظهره المفرود مثل لوح الخشب، يعبر الشارع وعيناه الحادتان الماكرتان تتعقبان النساء في مختلف الاتجاهات، كَمَشَ ظهر المقعد بقبضته العريضة، ارتمى فوقه مثل حجر، تمدد في استرخاء ودون أن ينبس. هكذا تجمعوا أخيرا بعد جدال طويل، ومماطلات مرهقة نتيجة تعارض المصالح

استهلكت أياما طويلة، حسمها حدث وهو اقتراب قطار الرحيل من حافة المغادرة برأفت بعد غد، الأشواق حامت حول الطاولة، بينما كانت النادلة صاحبة البشرة الندية تدور حولها، كانت ترتدي الزي الرسمي المميز للمكان، رأفت بدا أكثرهم شغفًا ونضجًا للمشاعر والذكريات، تراقصت أمام عينيه بوضوح خيالات الماضي وروائحه التي سكنت خلاياه منذ أمد بعيد. كمثل طيور بأجنحة حلقت في فضاء الصالة الهادئة ذكريات الجامعة والتلمذة والتمرد والحب، بينما تتباعد وتقترب

حركة النادلة الشابة السمراء بين طاولات الزبائن المتناثرين في المحيط، وحسام يتعقب خطوات كعبها الخشبي باهتمام، لم يكن هناك شيء آخر سوى الذكريات وروائحها وجلالها المقدس، وقلق الواقع، ورفضه لدرجة العدائية، لم يكن «نبيل» ليستقر على ابتسامة أو مزحة دون أن يرتشف من كوب العصير قبل أن يطلب من النادلة المبتسمة طبق «سَلَاطة» إضافي بالفواكه والآيس كريم، ولم تكن جدران المبنى العتيق لتصيخ السمع للرفاق وتفتح خزائن أسرارها لهم وللشارع المزدحم الذي دهسته الأيام، وأولئك البشر اللذين يمضون فيه مترنحين، وقد عصبت أعينهم بغلالات رقيقة مصنوعة من القلق والهموم والخوف. اقتربت مشاعر الحنين وتفاصيل القصص القديمة وتباعدت مع بوح الجدران، وحركة النادلة الشابة المفعمة بالحيوية والشباب، حسام لم يعد يحتمل كل هذا اللغو الذي لا يشوقه ولا يعيشه، نطر نفسه على حين غرة، رأسه اقتربت من السقف، لم يعد لديه خليه واحدة تحتمل، طالع ساعته «الكاسيو» القديمة، انقض فجأة على رأفت، استنهضه من مقامه، احتضنه بقوة، رأفت ما زال طائرًا في فضاء الماضي، استقام نبيل الذي ما زال فاغرا فاهه للحلم ولسلاطة الآيس كريم، شد على يده بقوة، فر من أمامهم بسرعة، شاهدوه من خلف الزجاج يمضي بخطوات واسعة متعجلة، عاقدا حاجبيه، وضاما ذراعيه حتى منتهاهما على جانبيه وقد ارتدى نفس الغلالة التي يرتديها الناس في الشارع الصاخب المزدحم، لحظات ثقيلة انقضت قبل أن ينتفض الرفيقان ويتعانقان بحرارة، كأنهما لن يلتقيان أبدا بعد اليوم، دلفا معا إلى خارج المقهى، استقبلهم الشارع المتخم بالقلق والاكتئاب، وتزينه نفحات الماضي وعرق الأقدمين، والأحداث الجسيمة، طفقت رائحة الشارع تطارد الرفيقين وتزكم أنوفهم بشدة حتى افترقا بعد أن تركا خلفهما بيت القضاء والعدل مطلا بشموخ ورهبة كأنه يخفر الشارع العظيم.

الفهرس